بشـــرى محمد أبو شـــرار



حنيـــن

رواية

الإهداء

إلى ماجد شلا الذي أهداني وطن من صور..
إلى حسن الحوراني وموجة تقبل وجه الشمس..
إلى إم جبر الغائبة الحاضرة.

بشرى محمد أبو شرار

على الضفة البعيدة تنثر حكايات.. حنين، تتلقفها الأرض، تنبت منها نباتات برية، لا يتعرف عليها ناظروها، يمر بها من لفحت الشمس وجهه، ولونته ببسمة تخجل منها عذارى النهر.

يهتف من قلبه أنها بنفسجية الشجن الفلسطيني، الكوني، العاصف، سيدة الجراح العربية.

هل أهديها وردة من دمي، ومن دماء نخيلنا الباكي في صعيد مصر، حزناً وألماً على مدينتها الضائعة.

(١)

لا تعرف حنين من أي مدينة أقلعت بها السفينة، هل من ميناء اللاذقية إلى الإسكندرية، أم من بيروت، كل ما أدركته أنها محمولة على صدر البحر، بمركب تسيرها رياح شرقية، لأرض لم تطأها من قبل، أمها تحتضن مولودتها، وحيرتها وشكواها، عتابها لأبيها:

– سفينة بهذا الحجم لا ينطق أحد بالعربية؟!

– هذه مركب روسية.

تهدأ نبرة صوتها، تتوسل إليه:

– حاول معهم بالإنجليزية.

نهضت بثورة القلق بين الردهات تبحث عن شخص قد يفيدها، تشير للرجل على طفلتها، وتشير إلى صدرها، قائلة بالعربية:

– حليب لطفلتي.

أومأ برأسه، وابتسامة تخايل وجهه، يزهو بنفسه أنه فهم ما تريده المرأة منه.

حنين تحملها مدينة عائمة، تفترش وجه البحر، تأخذها الدهشة لأرض ناعمة ملساء، فتحات نوافذها دائرية، دون قواطع الحديد، كما في بيتها هناك، مدينة تميل للريح، تنبسط لها، تعلو وتهبط على الحنين، تتشبث بالحوائط، تعيش لحظات ممتعة في وقت انشغال أمها عنها، بل وتكلفها بالبحث عن أبيها على ظهر المركب، لم تظهر لها أنها لا تعرف كيف تصل إليه، أخذتها درجات هابطة، تكشف وتتأمل الموجودات من حولها، يأخذها الصعود، تتبع ضوء الشمس، فيشدها لظهر السفينة، على المقعد الخشبي رجل وصبية يتهامسان، ضحكاتهما تؤنس قلبها، كلما اقتربت تشدها مسافات المدى، يضربها الفزع حين رأت أسد سلسلت أقدامه في أعمدة الباخرة، وجه لوجه أمامه، زئيره يمزق أغلاله، لم تصرخ، وكانت اللحظة، يلتقطتها ساعد البحار الروسي ويهبط بها ،وأهداب فستانها وقد غطى ساعده، فراشة محمولة، تنصت لحديثه، وضحكته، ووجه أبيها:

– أين كنت؟!

هل تقص عليه حكاية الأسد الأسير، أم حكاية عاشقان يتحابان؟ أم عن خوف أهلك قلبها وأنفاسها؟ ستلجأ لسريرها وترقب الريح من فتحة النافذة، لن تبارح حجرتها إلا بصحبة أبيها.

أيام وظهرت مدينة "الإسكندرية"، هيئتها مكتملة للنزول للأرض بعد فراق طويل، ألبستها أمها معطف صوفي أحمر، على جوارب بيضاء، وشعر ليلي يلامس كتفها، الفرحة أخذت قلوب الناس بمجرد أن رأوا اليابسة، وظهور المدينة في ضباب فجر جميل.

أخذتها درجات خشبية، لتوصلها بالأرض. أمها.. وشقيقاتها.. وأبيها.

(٢)

من الأزقة المترامية عند بداية الشاطئ، تنام مع غروب الشمس، تسدل نهارها، تأنس لظلال المصابيح الهامسة، تثور الذكريات القديمة، وتكتب من ذؤابة الضوء حكايات، لم تضيعها موجات تسحب من الأرض رمالها لتسكن جوفه.

تقف بسيارتها في مواجهة البناية القديمة، عتبتها رخامية مجوفة، أكلتها نوات السنين، لنعال لم تكف صعوداً وهبوطاً عليها، دوائر الباب حديدية، تشكو داء من صدأ أيام بعيدة، غافل منها، قضم من حوافها، من ذؤابة نور الدكان تقرأ ما كتبته الحوائط وفتحات الشبابيك.

سرحت بنظرها تقرأ "بقالة عم جرس" طنت الأجراس في أذنها، تنهض حكايات تحمل الفرح، تنثر الدموع.

من البناية التي تعلو دكان عم جرس، شقة عاشت فيها حنين، تملكها خادمة، كانت تعمل لدى مالكها اليهودي، رحل عنها من أحداث متدافعة إلى فلسطين، حنين تعيش في ذات الشقة، تستأجر حجرة منها، شبابيكها مشرعة على مسرح بيرم التونسي، وهي الفلسطينية تعيش في بيت يهودي رحل إلى وطنها.

وجهة حجرتها كبيرة تضم ثلاث فتحات لشبابيك كبيرة، وآخر يستطيل طولا من السقف إلى ما قبل الأرض، تقف كل ليلة ترقب البحر وتقلباته، رذاذ البحر يحجب الرؤيا، تحتمي من لفحات الريح بزجاج الشباك، ترقب زحف الوقت، ترى طريق غربتها، وكيف يمضي مع المدى بعيداً، كلما سمعت نقراً على الباب، يحضر في ذاكرتها وجه اليهودي المهاجر، وكيف حلت مكانه تلك المرأة التي تنقدها كل شهر مبلغاً، تؤجر كل الحجرات وهناك اليهودي يعيش دون أن ينقد أحداً.

ترك لنا وجه تلك المرأة، وثلاث فتحات تطل على البحر وبيرم، سان مارك، تتقاذفها الهواجس بالتساؤلات:

– أين يعيش الآن؟ على ضفة بحيرة طبريا.. أم على قمة بيسان من الشمال.. البيت الذي سكنه أين يطل؟ هل يراني من هناك ألتحف فضاء غربتي، ويرى خادمة تؤجر الحجرات الخالية، وحين يأتي الصيف تلقي بحقائبي خارجاً، النقود هي وسيلتها الأولى والأخيرة، هل تشبه الخزانة التي وضع فيها ملابسة تلك التي تركها هنا خاوية، أضع فيها حوائجي وأنا الغير مقيمة، وهل تحمل خزانته مرايا صور أصحابها، وعلى أرففها بقايا من عطورهم، وزينة للصبايا، هناك في كل بيت ركن بعيد يسكن فيه صندوق محفور على خشبه حكايات من كنعان القديمة، نجوم ليل، هلال مشطور، وقمر يكتمل، تضع فيه العروس حوائجها.

هل يقيم في بيت يسكنه صندوق فيه أسرار الحكايات، من زمن الجدات إلى وقتنا هذا؟ هل أدرك كذبة كبيرة "أرض بلا شعب"؟ هل تعرف على وجه عمتي فاطمة، وجدتي زبيدة؟ رائحتهم لم تنخر أنفاسه؟! وبلاط دارهم ينخز أقدامه.

(٣)

كل الصحبة الراحلة دفنوا واقفون تحت الأرض، ينتظروا رفاق لهم عائدون من كل المدن المنسية.
من الممكن استبعاد جزء من الأرض، إلا روح الشعب، كيف يكون استئصالها!؟
شوقي أبو رمضان كان يجيد العزف على آلة الأكورديون، نترنم عليها بأغان من بلادنا.
حنين هويتها وثائق الوطن المكتوبة، ممزقة، مدرجة بالدماء، مبللة بماء الوطن.

(٤)

أسم وطنها يطن، كما وقع العملات القديمة على أرض صخرية ملساء، قال الأسيوطي:

- ما أجملها قصة، كنت معك في أجواء أخذتني بعيداً، إلى أن ذكرت اسم فلسطين، هنا أفقت لأجد نفسي ملقى على واقع مرير، لا تذكري اسم وطنك ولا أسماء المدن، هكذا تفسحي طريقاً للدلالات، وبراح للتصورات.

الصمت الجاثم على الحضور يوافقه، ونظرات عيونهم توافقه، أما هي ففي صدرها تمور صرخة بالكلام، تتحين اللحظة لتأخذ فرصتها للحديث:

- إنها الذاكرة، وحرصنا على أن تبقى، نحفر أسماء المدن ونرسمها على خرائطنا القديمة، فهي الشاهد الوحيد، صفد، طبريا، جنين، قد ينس أبناء لنا ولدوا في أستراليا، كندا، وأنا ما حيلتي إلا أذكر بكل ما حفظناه وعشناه، أحوط بساعدي على زمن قد يتلاشى من ذاكرتنا، هناك من يترصدنا، كيف ننام لنصحو على أحداث جسام.

حل سكوناً موجعاً في فضاء الحجرة، الأسيوطي قبض على مسبحته، توقفت أنامله عن سحب حباتها، خبط بها على الطاولة قائلا :

- أعتذر عن رأي قلته.. أنت محقه.

(٥)

تقطر من العين دمعة تحتضن صوراً مرسلة من هناك، تنبجس الصخور من موج البحر وقد كستها الأعشاب بحلة بحرية، وجهها ناصعا يترقرق على موجات قادمة تحنو على قلبها، الأخضر يرتوي من ملوحة الأرض ليرقد في ثنايا الرمال، تكومت الأصداف على الشاطئ، يلقيها البحر في جوفه، فتنكشف عنها سر الحكايات.

جبردين أسود، وخصل الشعر حلزونية متأرجحة، تخرج من جحور المدينة العتيقة، امرأة كنعان تتشح بالسواد، الأسود هو فقد عظيم لا تنساه حنين. ضحكة بريئة من وجه الصغير، ألعابه تتدلى من فوق سريره، تشاطره من لون الليل ضحكاته.

الأقدام غارقة في ملوحة البحر، فتحات شبابيك يحوطها سياج طلي بالأبيض، الدار سكنها الأطفال، يرسمون ضحكاتهم على الحوائط، وأصداف مدفونة على وجوه لا تبارح فضاء الحكاية، تكبشها الأنامل وقد ظلت على دفئها.

(٦)

على صخرة بحرية وقد توشحت بالأخضر، وقف النورس متأملاً فضاء الكون، يحسب مسافات شقها بجناحيه، يعيش لحظة وصوله، ترووده مسافات سيقطعها لهجرة جديدة، أو عودة قريبة.

لون ريشاته من ندف غيمات مسافرة، همت تستعجل خطوتها لتقترب منه، ما أن لمح ظلها حتى خفق بجناحيه، فحملاه إلى فضاءه الكوني، أصابتها تنهيدة تعاتب فيها حزنها، تسأل:

- ليته أنتظر قليلاً، أتوق لصورة له، تبقى في الروح ولا تغيب.

رحل الشتاء، وجاء الصيف، دمع الكون لاستقبال أول نوة شتاء، على عادتها تعب الخطى، تحاذي الشاطئ، حارس الرمال يقبض بيده على كيان يتأرجح مع حركته، يدنو منها ولازال على قبضته، تسأله:

- النورس؟!

المسافات تذوي ما بينها وبينه، النورس مستسلماً، تدلى جناحاه على هزيمة محققة. غاب رأسه بين ثنايا ريشه، غاب العنفوان، لم يعد نورساً.

(٧)

استقبلت حنين نهارها بنعاس يخايل نشاطها الساكن فيها، تنهض لاستقبال يوم جديد، تشحذ ذاكرتها عن ليلة الأمس وانقطاع تيار الكهرباء، أشعلت شمعات صغيرة، من نورها حاولت أن تسيطر على كتاب ملقى على مكتبها، تتراقص بقايا من ضوء على غلافه، ترفعه إليها، تقربه من وجهها "إستراتيجية الأدب الصهيوني لإرهاب العرب" دكتور محمود حميدة، تشحذ بكل كيانها نور مختزن في مقلتيها، تقلب في صفحاته، تقرأ منه.

نور الشمعة يتوارى إلى الفناء، تلتقطها، تحاول أن تلم ما سال منها، تحوط عليها بأناملها، انفلتت نقطة على صفحة الكتاب، هالها ما رأت، دائرة شمعية سوداء على كلمات "عاموس عور" "د/ ناتان شاحم" تراب الطريق "إسرائيل زراحي".. هم عديمو الشفقة، لا توجد رحمة في قلوبهم.. "موشيه سميلاسنكي" الخواجة موسى.. ماذا يفعل هؤلاء العرب هنا؟! لماذا هم فقراء قذرون؟! تنهد حنين على ضوء شموع شاحبة: أداة النداء العربية لماذا يستخدمونها "يا سعيد، يا أحمد، يا ولد"؟

"اسحق شامي": جعل من أنوفنا أنوف خطافية، تبرز من بين أغطية الرؤوس الملعونة، كمناقير الطيور الحادة، والعين يسكنها وهج النار.

"إسرائيل زراحي" يفصح ويقول: عرب يقطعون الإصبع الذي به خاتم، يأخذون السنة الذهبية من الفم، الفلاحون هنا يطلقون عليهم الجهلاء، القذرون، متوحشون، وجوههم مصفرة، يسكنها يرقان، وشقوق تسكن جلد الوجه، على ابتسامة باهتة.

أما العين عند "ناتان شاحم": عيونهم تلمع كالخنافس الهامسة، أسنانهم كالذئب المتوحش، وقد شوهت الابتسامة، وأيدي خشنة، وخربة "خزمة" التي يسكنها كل هذا البؤس، أقدام حافية، طفل يكبر، يصير حية، ساقه يتلوى كثعبان.

لم يكتب "شارون" كيف كان يقاوم راحات الأطفال التي حملت حجارة لا تتفتت.

من سمع الخنافس تهمس للأرض وتقول "لا"؟

"عاموس عوز" يحكي عنهم أنهم يسرقون الفواكه غير الناضجة، ينتفون ريش الطيور، "ناتان شاحم" يهشهم كما يهش سرب من الدجاج، يتحدث عنهم من "تراب الطريق"، "يوسف أريحا" حيوانات هم.

(٨)

في هذا المساء البارد يجتاحها صقيع الأرض، تراوغه، تتسحب لأماكن قد تبدو أكثر دفئاً، تنشد سكينة في أماكن يغلفها المدى، تسلم نفسها للطرقات، تتكسر الأنوار على حدقة عينها، لا تأبه بها، الحفر تأخذها وتلقيها على مسطح الإسفلت، يستقر الطريق مستوياً، أزرار معطفها تحكم عليها جيداً، بأطراف نحيلة تقبض على المقود، تشفق على نفسها، تمر بخاطرها حكايات بعيدة وحكايات قريبة، تقترب منها وجوه وتنكرنها وجوه، تسدل أهدابها على مكان تنشده، تنحو جانباً، يلتقطها مصعد للطابق التاسع، تهدأ أنفاسها، تلمح مقاعد ظهورها خاوية، حركات سريعة تأخذ للهدوء، لا تحدد من صافحت يدها، ومن لوحت له، لمن ابتسمت، ولمن جفت ملامح وجهها، ما تذكره كتاب أسقطه في يدها بلون الرمال، تتجاذبها الحيرة، هل هو هدية؟ أم أحدهم أرسله يعيره لها؟

قارب وقت الانصراف، اقتربت من الرجل أسأله:

– هل أعيده أم ...؟

قبل أن أكمل جملتها أجاب:

– مرسل لك هدية.

في طريق العودة تقلبه في يدها، العنوان أخذها "شوشا".

(٩)

"شوشا" أوقعتها في لجة الحيرة، هي المرة الأولى التي تقرأ فيها رواية بكم هائل من الصفحات لكاتب يهودي، حملها معه على أجنحة أفكاره، لصقت عليها أرقام وعلامات، وطوت حوافها على أحداث وحوارات، تقلب الهوامش، تقف عند نقطة التلمود، عمال صهيون، عذراء لادومير، سارة برنار، فرويد، عيد البوريم، عيد الغفران، خبز الحالا، العمالقة. تدخر أنفاساً في صدرها، تزفرها تهمس:

– "سمير أبو الفتوح" أضناه جهد كبير ليترجم عملاً كهذا، وأنا المستلقية على سريري أقلب وأقرأ وأنداح بحذر شديد لخدر قد يبتلعني في أعماقه، هو سمير الذي قدم لي هدية، وفرصة لم تواتيني من قبل.

تقفز من مطرحها، تنشد الهاتف، تدير قرصه، تسأل عن أعمال أدبية لكتاب يهود، لا تعرف ما الذي تنشده، وأين تجد ضالتها؟ هل أخذتها المفاجأة لكاتب يعيش في وارسو"بولندا" ويحلم بعودة لأرض لم تطأها قدماه من قبل، ولم تلم عظام أجداده، وهي الملقاة على أرصفة المدن، تلتحف الغربة، تنشد وطناً توسده أحلامها.

ترتقي درجات السلم، يدق هاتفها، تتلاحق أنفاسها في صدرها، تسمع صوته، تسأله أخباره، تحاول أن تجمع أفكارها، وتعود لحالتها، تسأله عن كتاب يهود، كانت إجابته خاطفة :

– بالطبع قرأت لعدد منهم.. "ميشيل عور"، "شمعون بلاص"، "كاستنيك" وما كتبه عن المعتقلات النازية، ومعاناة الاغتراب والأرض الموعودة، وقناعة لا تتزحزح بالحق.

– أي حق؟!

– الحق في صراع قائم على ارتكاز ديني، ونحن على وقف إسلامي، العهد القديم، "التلمود" بكمله، العهد الجديد، أوروبا كلها تتبنى هذا، ورفض مطلق للإسلام، لا يعتبرونه دين سماوي، المأساة أنهم حولوها إلى قضية لاهوتية، هي معركة الملايين، تدعمها مؤسسات عالمية.

تمتم عبر الهاتف بأنفاس ضائعة، أخذتها لفضاء الحكايات القديمة، ساد صمت ثقيل، حاولت إزاحته ،بتواصل الحوار:

– كل هذا؟!

– نعم، فالصراع ينكر الإسلام، المسيح أصلا يهودي، والقضية لاهوتية.

انقبضت روحها في صدرها، دارت بالهاتف الساكن على أذنها، تجول بنظرها في محيط حجرتها، ترقب الكتب من حولها، كتب الأبحاث والدراسات الفلسطينية، هل تبحث فيها عن قضية لاهوتية؟

أم عن مدن ضاعت، وعيون اقتلعت، وضمائر غابت، كيف تبدأ رحلة البحث؟ كل ما تقبض عليه الآن طرف خيط أسمه "شوشا" والآخرين أسماء لم تسمع عنها من قبل، كيف تعثر على "كلاستنيك"، و"شمعون بلاص"؟....

عاد يناديها على خط الهاتف، تنبهت لصوته:

- أين أنت يا حنين؟ هل ضاع الخط؟

- أنا معك.... أسمعك

عاود حديثه معها:

- أرسلت لك روايتي "البحث عن أزمنة ضائعة" أرسلتها على عنوان السيدة مها، ستقوم بتوصيل النسخ لك بالإهداءات، لا تنس الأستاذ نصير.

غالبته ابتسامة، أما هي فرددت اسمه ثانية، "نصير الثقفي" من حمل لها الكتاب الهدية، الدائرة تضيق عليها.

عاد يؤكد:

- نصير وكل الأصدقاء

ضاع الخط، وعاد السكون يرسم لها مساحة خاوية، تتذكر فيها كلماته، صراع، لاهوتية، عهد قديم، مها، تسأل:

- لماذا هذه المرأة بالذات؟! هل لأني قلت له أنها لا تكف تكتب القصص القصيرة عن أحلام الانتظار من بلورة روحها، وأن شمس غابت، وقمر ينير العتمة، أنا التي حكيت له يومها، أسمعني ضحكته تقطر بالمكر، عاجلته:

- أظنك ستتوهج قريباً، فقد تكتب رواية جديدة.

عاجلني بإجابته:

- لن تكون دافئة، بل باردة لا يبارحها فصل الشتاء.

غدا سيرسل إليها كتبه على عنوانها، لم تكترث هذه المرة، هي تعيش أزمة نمت وترعرت على صفحات "شوشا" بخطوط سنجر.

(١٠)

كان بجوارها حول الطاولة المستديرة، يضم ركبتيه على كومة من أكياس باهتة طالها التشقق ونخرتها الثقوب، يلمها في قبضته، يدسها تحت إبطه، أو يؤرجحها في فضاء المدينة في لحظات يتجلى مع ذاته الحبيسة لمواعيد ندوات ومواعيد حافلات، ظل السؤال يراودها:

– أين ذهبت نظارته الزجاجية متعددة الدوائر؟

لم تعثر منه على إجابة شافية لفضولها، ظلت تراودها واقعة قد تكون حدثت له، أن أحد المارة افتعل مشاكسة معه، فلم يستطع صده ولا تفادي لطمة قوية أطاحت بنظارته.

ترى كيف بدى العالم له بدونها؟ وهل يراها كما تبدو بذات هيئتها، أم تغيب ملامحها أمامه؟ خرفشة الأكياس واهتزاز المقعد على أرض من السيراميك جعل عيناها لا تبارح هيئته، عم الهدوء ثانية، وهي تتابع من حولها، تأخذها حكاياتهم المقروءة، في لحظة لمحته يرفع لها كتاب داكن الخضرة ناعم الملمس، همست له متسائلة:

– ما هذا؟!

يقترب منها موشوشاً:

– كتاب يوثق تاريخ مدينتك.

مدت يدها، يغشاها الحذر والريبة، تقلب صفحاته، تحضر الأزمنة البعيدة، آرام.. كنعان.

– إنه بالإنجليزية!

يهمس لها في حذر:

– كاتبه إنجليزي محايد، وثق كل ما كتبه بالخرائط والرسومات، القدس وما حولها.

لم تعرف كيف تلتقط الحديث معه، كتاب لها هي بالذات وبطريقة خفية يقدمه لها؟! عادت إلى البيت تقلب في صفحاته، تحاول فك المعاني من كلمات وعناوين "القدس وما حولها".

(١١)

لم يمض يومان حتى كان ببابها على ذات الهيئة التي كان عليها، لا تخفي حبورها لزيارته، يعاجلها بإصراره على خلع حذاءه بمدخل البيت، وتصر هي أن يظل به، دخلت حجرتها تسحب الكتاب الأخضر بجوار وسادتها، تأخذ مكانها، وتبعثر حزمة تساؤلاتها:

– من أين أتيت به؟!

– هو ليس لي، بل للأستاذ كراوية، افحصيه جيداً، كل ما كتب فيه لأكثر من مائة عام.

– أستاذ كراوية أرسله هدية أم استعارة؟

– تأكدي من أهميته، وأعطني سعراً يناسب قيمته، قد تبيعينه لإحدى المؤسسات المهتمة بتاريخ القدس.

انتفض قلبها، تكابر لأن تمسك بأطراف الحديث معه:

– كم يرغب فيه؟

هربت الكلمات من حلقه، ولكنه قبض عليها بجهد ظاهر:

– ألف جنيه.

– ألف!!

عاد يتدارك نفسه:

– كما تودين يا سيدتي.

لمعت فكرة ماكرة من عينيها، عاجلته بخفة وهو شاخص في فضاء حجرتها، لا يحيد عن مداره وكأنه يلقي عليها درساً محفوظاً، قالت له:

– لماذا لا يسقط منك على الطريق، تسهو عنه وتنساه في الحافلة، تعود دونه، أقصد تكون أضعته مثلاً، هذا إن أصر أستاذ كراوية على الثمن؟

تمتم، وهمهم، ضم أكياسه في قبضة يده، عاجلته قائلة:

– لا حرج في ذلك يا صديقي، هو يبيع القدس، ويستحق هذه العاقبة.

تمتم، وتأتأه

– ن... ع... م.. ص..ح..يح.

بلهجة حادة حاضرة، انتفضت من صحراء تشكو الجفاف:

– لا أستطيع أن أحمل هذا الكتاب وأدق الأبواب، أسأل "من يشتري؟".

(١٢)

في حجرتها البحرية نامت حنين وصاحبتها على حكايات غيبها الزمان، يلتقطنها قبل أن يأخذها النسيان، صاحبتها تبحث في الإنجيل.. التوراة.. القرآن.. مريم المجدلية، العذراء، يوحنا المعمدان، ليوناردو دافنشي، رسم يوحنا المعمدان وهو يشير ببنانه، نور تقص عليها:

– هي شفرة دلالتها التوحيد، يوحنا يرفع إصبعه.

غربتي مضنية، لا أعرف هل أقتل الوقت أم الوقت يقتلني؟ أمضيت أيامي أحل الرموز، أفتش عن الحقيقة. قالت حنين:

– أنا قتلت غربتي في قراءة وكتابة، آخر ما وصلني كتاب بلون الزيتون، هلال وصليب، أستاذ كراوية يبيعه بألف ورقة نقدية، لمعت عين نور، سيجتها اللهفة هتفت:

– أين هو؟!

التقطته من بين أوراقها وكتبها، ناولته لها قائلة:

– هل يستحق؟! القدس وما حولها.

ضمت نور قدميها وأسندت الكتاب على ركبتيها، تقلب في صفحاته قائلة:

– مضى عليه قرن من الزمان، فيه خرائط وصور ظلت على ألوانها، أنظري ما كتب عن قبة المسجد أعمدة الصخرة أحدها مرتكز على الهيكل والآخر على عمود باسم هيرودوت، وحظائر سليمان التي تربط فيها الخيول، رفعت رأسها:

– هذا الكتاب من الأهمية بمكان.

حل السكون على مساحة الحجرة، تسأل حنين:

– إذن أصوره وأعيده لكراوية.

انتفضت نور من فرشتها قائلة:

– لا، أنظري الخرائط التي فيه.

بنبرة يقتلها الأسى قالت حنين:

– وهل شراءه سيعيد القدس إلينا؟! هل تعود؟! صديقي في "تل العمارنة" في المنيا يكتب كتاباً، يشبه حالتي بسنوحي المصري الذي ضيعته البلدان وعاد، هل أعود وتعودي معي؟

أشرق وجه نور، تململت في فرشتها، وكأنها سافرت لأقاصي الأرض وعادت يجتاحها الحبور، وبلهجة يغلفها اليقين قالت لحنين:

– كم أتمنى الذهاب للقدس.. سنذهب معاً.. معاً يا صديقتي.

نور ابنة كنعان، تتشح بشالها الأبيض، تدرس الإنجيل والتوراة، تبحث عن الحقيقة، وحنين تكتبها.

(١٣)

في دائرة اجتماعهم هذه الليلة، لم تسعهم حجرة المكتبة فانتقلوا لفضاء الحديقة، الريح باردة تلفح جسدها المتكوم في مقعد خشبي، تحاول أن تفلت من قبضتها، تلهي ذهنها بضحكات عن أحاديث يتندرون بها، أو قصص لها شكل حكايات ساخرة، نصير يجاور عبد الفتاح مرسي، تقابل كراوية متضخما في مقعده، تتسحب أناملها على أوراق قصتها، تحاول أن تسكنها على ساقيها، تقي نفسها بعضا من صقيع الليل ،مذاق القصص ينحو للغرابة، عبد الفتاح يقص عن أكتوبر المعاند له، كيف جمعته الأقدار بصاحبيه، أحدهما عاد بقدم واحدة والآخر بعين زجاجية لا ترى، ذكر اسم الفخراني، تعرفه لسنوات طويلة، يكتب، يحاور، يؤازر، عيناه يسكنهما نور شاحب، نبرة صوته يضمخها الشجن، يخاطبها قائلاً:

– حنين نحن دوما معك، لا تصدقي أنك هنا غريبة، كلنا أهلك.

يصمت قليلاً، يهمس لنفسه معاتباً:"مقصر أنا في حقك".

تهذي من فرط حزنها:

– يا إلهي الفخراني يوخزه الضمير بأنه مقصر، لامرأة غيبتها الطرقات من فلسطين إلى مصر وعين زجاجية لا ترى.

"محمد النجار" يتململ في مقعده، يقبض على عصاه، حتى تنفلت من يده ليعيدها مرة أخرى، قصته والشرف الذي يرهن ويباع.. البرد أرعد أجسادهم، لم يبق إلا الأستاذ كراوية، قال بصوت أجش:

– قصتي بعنوان "المرتشي".

يلقي عليهم بكلماته وصقيع حال بينه وبينهم، ما أن شارف خط النهاية حتى عاجله رئيس الجلسة:

– قصتك من عنوانها فيها المباشرة، تحمل كل أخطاء القصة القصيرة.

لم يعلق، انفض المجلس وتفرق الجميع، كل إلى طريق، ظل نصير واقفا بجوار كتف كراوية يشير لها بالاقتراب تشتد نبرة صوته علواً:

– سيدتي أستاذ كراوية يريد الحديث معك.

كراوية لا يبارح مكانه ببطنه المنتفخة أمامه، يسألها مزهواً:

– رأيت كتاب القدس؟

– نعم.

– ما رأيك؟

– هل آخذه على سبيل الإعارة؟

– بل أريد بيعه.

– كم تطلب فيه؟

– ألف جنياً، أنها القدس بخرائطها.

غام القمر، حط الصقيع على حواف قلبها، تحاول الانفلات، تتذكر كلمات من قصة عبـد الفتـاح مرسـي "فجوة حدثت ونحن نحدق في عمق الأخدود، فلا نشاهد القاع، بئر تمارا، العـين الـسخنة، الطريـق إلـى القدس".

تتجاذبها الحيرة، هل تلقي إليه بالكتاب الأخضر؟ هل تسكن القدس على مساحة كتيب لا يتجاوز حجم كـف اليد، حروفه بالإنجليزية، خطت بخط أسود غليظ، محفور عليه صليب يقابله هلال ونجمة، خـرائط لأوديـة وممرات، أبواب وأسوار، إعلانات لمعونات من الوكالة اليهودية، تطلب ملابس، عمل، نقود لليهود القـادمين إلى فلسطين. هل يسكن التاريخ كتاب يبيعه كراوية؟ تتأرجح الأفكار في رأسها.

أن تلقي له بالكتاب يدور به، يدق الأبواب، يتسول ألف جنيه، ولن يجيبه أحد، فلن تباع مدينتها.

(١٤)

هي المرة الأولى التي تلتقي به وهي تعلم عن عين زجاجية لا ترى، الحديث يبدو هامساً، ولكنه يتسرب للأذن واضحاً نقياً، الفخراني يثير انتباهها بملامح وجهه المتعبة، يحتدم النقاش، ترهف السمع لحديثه، تضربها الدهشة "هو ينكر يوم ميلاده"!!

– لا أعتقد أنني مولود، أنا من مات يوم ميلاده، من يوم مؤتمر "بال" ألف وتسعمائة إلا ثلاث، أقولها دوما وأعلمها لأبنائي، يحفظونها عن ظهر قلب.

همس صاحبه لرفيقه:

– هو كما تراه لا انس يوم وقف في فناء المدرسة، كان عمره ست سنوات، هتف بأعلى صوته: "فلترفعوا علم فلسطين هنا، حتى لا ننس عام ألف وتسعمائة إلا ثلاث".

عاد الهدوء للقاعة ثانية والسمع يتحلق حول الفخراني:

– في العاشرة صباحا في مؤتمر "بال" بسويسرا أعلن قيام وطن قومي لليهود، كان العالم كرة أرضية واحدة، تدمع من ثلاث عيون، الجبل الأخضر، الكنغو، فلسطين، تفجرت هواجسهم، نطقوا جميعهم بفحيح المؤامرة: "ما بالنا وقد فقدنا عهدنا القديم.. سنعود لأرض الميعاد". فكانت فلسطين.. عين لم يبارحها الدمع من ألف وتسعمائة إلا ثلاث.

أفاقت على حديثه، بنبرة صوت يرتجف، يتهيأ لميلاد ثورة:

– أن يحيطها الظلام، وينتهك عرضها في رابعة النهار.

تمزقها حروف كلماته، يتلقفها قائلاً:

– الحالم كالفنان، كلاهما يمزج الحلم بالواقع.

يوم تكريم الفخراني هو ذات اليوم الذي ينكر فيه ميلاده، يبعثر أوراقه المكتوبة بخط رمادي من رصاص، يفسح لها مجالاً لتقديمه، هل تحكي للحضور أنه بطل على أوراق تكتبها، وان قلبه مفعماً بعطاء يملأ دنياه التي ينحو إليها، بنبرة مفعمة بالشجن يسأل الحضور:

– هل يمكن اختزال الصرخة؟ لماذا يموت الرجال ويبقى أنصاف الرجال؟! وكيف يتشكل وجداننا الأدبي بالخذلان، همنجواي يقول: "لا تقولوا وداعا للسلاح" مؤتمر أدباء صهيون ألف وثمانمائة وثمان وتسعون، وخريطة يرسمونها بلون الهزيمة.

تعلو نبرة صوته، تصرخ بالسؤال:

– من يقول أن عمر المختار قاطع طريق؟!

تهدأ أنفاسه يعود لحضن أمه "صابرة" وفقد يشبه فقد حنين، صابرة الراحلة هي الملاذ والدفء، هي الأمة، الحنين للوطن.

تتناثر دمعات قلبه على أوراقه المسكونة بخطوط رمادية:

– قصتي دموع على جدران القلب، أحتمي بالجذور خشية السقوط.

فقده لأمه صابرة تعانق مع فقدها لأمها، لم يواريها الثرى، ظل يتنصت أخبارها، حالها كحاله، يرى في موتها ألف قيامة وقيامة، وترى في موت أمها ميلاد وطن جديد، يتنشق ترابه جسدها الفاني فيه، الفقد يحوطها، تراوغه في حكاية هروب، تقتل الوقت المجدول من خيوط الانتظار، ومعزوفة الحنين لصابرة، وشدو من نبرات صوت يرتجف على حواف قيثارة، نشيد الحرمان.

(١٥)

تطاوع جسدها المنهك في الوصول لفراشها، تشخص في كل الأشياء، الوقت براح، أنفاسها تحوم في هدوء من روحها، العالم يركن للسكون، تسمع خرفشته على أرض الحجرة، تناديه، يرد بصوت رقيق:

- نعم يا خالتي.

تنبهت أنه يهم في خلع حذاءه، من قلب البراءة يطلب منها:

- أريد أن أستلقي بجوارك لتحكي لي حكاية.

- كل يوم تريد حكاية؟!

- نعم كل يوم.

رفعت غطائها، تضمه إليها، تدسه في الغطاء، تحكمه على جسده الصغير، يتوسد رأسه ذراعها، يسدل جفونه عن ابتسامة صبوحة همس لها بنبرة دافئة:

- أعيدي لي قصة الأمس.

- أي واحدة فيهم؟

- القط حين دخل بيت الفأرة متنكراً بلباس الطبيب؟

- الصبي يوم ضيعته عصفورة الغابة؟ لنحك قصة جديدة، حكاية الذئب وكيف يحتال لدخول بيت العنزات الثلاثة.

أمسكت طرف الحكاية، تجدل من لمعة عينيه واقعا تشكله، ينتفض قلبه، تسمع دقاته، تظهر أسنانه، تراوغ ضحكته لانتصار الخير على الشر، النعاس يتسلل لأهدابه، دفء الحكايات لم تبارح مطرحها، تهمس:

- "شوشا" دوماً هناك من يحتال للدخول، دوماً هناك من يقاوم، بيت العنز من القش، طيرته الرياح، تبني بيتاً قوياً، تحتمي فيه من ذئب ينتظر فرصة للدخول.

(١٦)

مَنْ كتب "شوشا" نشأ على لغات ميتة، حنين تربت على لغة واحدة، منها تتفجر ينابيع الحياة.

آرامية.. تلمود.. الحدير.. يديشية.. لغة ألمانية قديمة تكتب بحروف عبرية يتحدث بها يهود شرق أوروبا منذ العصور الوسطى، تلمود وأحكام شرعية سجلها حاخامات يهود بالعبرية، تلمود فلسطيني، تلمود بابلي.. أجداد استقروا في بولندا قبل ميلاد سنجر بمئات السنين، ينتفض قلب حنين من فجيعة السؤال:

– هل لغة اليهود تعني الموت لنا جميعا؟!

شوشا بلهاء صغيرة في بناية رقم ١٠ أما أختها حورية تتكلم كطفلة في السادسة وهي في سن العاشرة، شعرها أصفر، تجل منه الشمس خيوطها، تضمخ بؤبؤ عيناها بلون الرمال، وأنف لها مدبب رقيق، أحبت كل أغاني العرب، ترنمت على أهازيج موروثة، تزوجت وأنجبت، تعيش في قلب الحياة، كثيرة البكاء، حزينة، دوما يترصدها اللصوص يخطفون أشياؤها، تبكي، تمسح دموعها بظهر كفها، تهدأ، تبحث عن نغمة تريحها، تحرك ساعديها، تفرك أناملها، تدور في حلقة مفرغة، تنسى أشياؤها الضائعة.

حورية لا تبل فراشها، تنام بعين ساهرة، تتباهى بين أخواتها أنها نظيفة، صوت المؤذن يأخذ فؤادها، تلم شالها، تدق الأبواب، تجوب الطرقات الترابية للوصول للجامع، تصلي، تخشع ساجدة، تدمع عيناها، تعود وقد سقطت أوجاعها في مسجد فلسطين. النسوة يسألن:

– أين حورية؟ نريدها معنا.

تترك الصحاف متسخة، تنفض عنها ملابس البيت، تركض نحوهن، تعلن عن حضورها، تقف حنين بباب الدار تسال:

– لماذا حورية؟! يتلهفن لقدومها، يفرحن لحضورها.

(١٧)

"وسوف تغسل ابنة القائد قدم شوشا البلهاء"

سنجر لا يحب الروس، ولا ينتمي لموروثاتهم، حتى أنه يمقت أسمائهم الممتدة على الصفحات، يهمس فحيحاً: "الموت لروسيا" عذراء لادومير هاجرت هي الأخرى إلى مدينتنا، بعدما أجادت في استقطاب من حولها عن طريق الدين، كان الاختيار الأخير لها، موطن في "فلسطين".

حورية تزوجت ولا تعرف لماذا؟ أنجبت الأولاد وعرفت أسمائهم، عاشت فقد الأزواج، بكت الأول، وحزن يأكل قلبها على الثاني، تتلمس من تقواها جدائل تقودها للخلاص، تقيم الليل، تهجع روحها، تتكوم على سجادة صلاتها، تلتقط المسبحة، الأمان يفيض من بؤبؤ عين بلون الرمال، تعقد عليها خيوط شمس لا تستطيع الانفلات، حورية حملتها أمها، خرجت بها من أرض فلسطين، عرفتها الرمال، التلال التي شهدت عدوها، قمم جبال ووديان، سمعت ضحكاتها و بكائها، فتاة عذراء لادومير تعبت من طول الحكاية، تنفض روحها عنها في سماء مدينتها هناك "القدس". حورية روح ساكنة، تفيض محبة، من جبال الناصرة، الخليل، الأغوار، صحراء النقب، روح لا تموت.

فتاة لادومير لا أحداث تفعلها أو تحكيها، هي دمية تتمتم بكلمات خفية، روح تتلبسها، ترسم خطوطها، تفح بالمؤامرة، خطوط ميتة، عرضاً وطولاً، لا تعرفها حورية، ولا كيف تمضي بين دروبها.

(١٨)

تمر بشوارع مدينتها العتيقة، في ليلة صارت بيوتها بلا أصحاب، شوك ونار، وأيـدي سـوداء، تـصرخ الـريح، يطير الصوت، يصير زوبعة تخبرهم عن الحكاية.. عن مؤامرة من فتاة لادومير، يـستيقظ ضـمير، وطيـر لا يكـف يكشف للفضاء حكايات الأرض، يأخذ معه ألوان الشجر، عين لا تنام عن فراق يفتت الفؤاد.

طير ريشاته من أيام الشوق وهبوب الرياح، قد يحملها لحظة ويعيدها مرة أخرى، طير يطوف بأطراف الدنيا لبيـت سلونيم.. فتاة عذراء لادومير لماذا لا تكتب عن غرامياتها؟! تخلق من خلالها صراعات، ونجعلها تحـب مـن غيـر اليهود مسيحياً مثلاً، بل حب من ذات الجنس، من جلدتها، هو الحب لعذراء لادومير، وحنين التـي أحبـت مـن كـل كيانها، وحورية أيضاً أحبت عبد الحليم، صوت مسافر من قلب القاهرة.

حنين تحب وتكتم الأسرار، ولا تخفيها عن وريقات من ربيع الأرض، ولا عن عقود الياسمين، من الطين تلتقطهـا، وتعقد على الحكايات، أما عذراء لادومير فلها حكايات من التوراة، يلتف حولها الرجال، يملئـون بطـونهم الخاويـة، ويجن جنونهم.

(١٩)

يوم كتبت الأديبة الإسرائيلية قصتها "شكسبير" كانت صورة رامزة لعملية اغتصاب دموي، لميراث الإنسان العربي، على أرضه فلسطين، تتحدث صراحة عن اغتصاب البيت العربي، اللباس العربي، القوت، الأرض.. "وصل لفلسطين وعلى جسده لباس بحر فقط، كان لص خزائن".

تتحدث عن سلب الأرض الفلسطينية وروحها العربية الضاربة فيها، كانت المفارقة أنها تعرض تنازل المغتصب عن نسخة قديمة بليت أوراقها من إحدى الروايات الكلاسيكية لشكسبير، كلماتها وحبكتها الفنية للقصة، تحاول أن تعالج الضمير الإسرائيلي حتى لا تعذبه عقدة الذنب، وراحة وهمية بعيدا عن عيون الضحية:

"كانت فيلا جميلة، لم يكن معظمهم قد رأوا مساكن من هذا النوع، وجه المدينة مهجوراً، الكنيسة فقدت أجراسها، قفزنا فوق جثة راهبة، أصبحنا في عقر دارهم، نصر فجائي.. بل هو أول نصر، وكأننا أطفالاً، ترك لهم الكبار كل شيء، وخلا لهم البيت، فتحنا الثلاجات، الخزانات، صنابير الاستحمام لا زالت تعمل، دخلنا الفناء الخلفي، انتزعنا الأبصال من الأرض وأكلنا، أشجار عالية وسميكة، متأصلة الجذور، حانت ساعة الغروب، مدينة صارت أشباح مطموسة المعالم، ضياء الشمس يغيب كسائل ثقيل، دخلنا منزل السيد بشارة، حديقته مليئة بزهرة "حنك السبع" المنزل معبقا برائحة هذه الزهور، صعدنا على السلالم الداخلية، تغطيها سجادة مزركشة جميلة، انقضضنا على حجرات النوم، داعبت اللحاف الأصفر بأصابعي، أما موسى الذي قالوا عنه أنه يذهب للقتال ومعه حقيبة خالية، ويعود ومعه حقيبة مملوءة، عرف ماذا يريد هذه المرة من منزل السيد بشارة، موسى لن يتنازل هذه المرة وهو القادم إلى فلسطين، وعلى جسده لباس بحر فقط.

قالوا أنهم صادروا أملاك أسرته في المغرب، وأنه مضطر لاسترجاعها بنفسه، أحذيتنا ممزقة بالية، عثرنا على دولاب الأحذية الخاصة بالسيد وأهل بيته، موشيه وافقت أقدامه الصغيرة ذلك الشبشب المزركش الخاص بزوجة بشارة، انتعله في قدمه، وأوبين انتعل صندلاً، يعبثوا بأوراق في مكتبه، صفحة واحدة بعنوان يقول فيه "الموت لليهود" وشخص آخر يقول أنه قابله في نادي الجزيرة، وأنه يهودي قذر.. وكتاب لشكسبير.

الليلة كانت حارة ثقيلة، وكأن شيئا خفيا يزيحنا جميعا، يزيح هذه المدينة وكل مخلوقاتها إزاحة هائلة، ومصيرية، كما لو كانت الأمور ليست في أيدينا، أحجار المدينة تتجهم لوجوهنا، تلمع لعدة دقائق، ثم ينطفئ لمعانها، المدينة القوية تتقدم نحو النهار، رائحة المكان مسمومة وثقيلة، حنك السبع ودخان بعيد وأحجار وسراب ورائحة كل ما يحدث، وهل الأحداث تلد رائحة؟!

السادسة صباحا خرجنا نتقدم شوارع أخرى لحي آخر. بعد عشرون عاماً يحلم بأن يعيد كتاب شكسبير دون الأرض، دون البيت!!

لم يعد بحاجة لكتاب شكسبير، هو بحاجة ليمد جسراً بينه وبين صاحب البيت المنتزع منه، والمدينة الضائعة التي أنكرته أحجارها وزهورها، وريحها المسمومة في أنفه.

بيت بشارة الجديد كانت تحرسه سروتان، لم يزرع حنك السبع، بل ياسمينة تسلقت جسم شـــجرة الـــسرو القاحلة، لم تكن أي رائحة سوى رائحة التراب، يفح في أذنه، أن وقع في طريقه كتاب، كتب عليـــه اســـمه، على الطريق المؤدي لبيته السابق، انزلقت من فمه كلمات كثيرة:

- تنهبون كل الممتلكات وتعيدون لي كتابا واحدا، هل هذه دعابة؟!

مد يده لجارور قريب، يبتلع قرصاً:

- جئت تفتح جرحاً.

خرج ومعه كتاب شكسبير، وابنه يستعد للإمتحان، يدرس يوليوس قيصر.

(٢٠)

هربت سنين العجوز على أطراف قريتها، وتعلقت بسياج يلفه الشوك، تجوب شوارع جرداء لـــم تعــرف الإسفلت، ولا بلاط الرصيف، يسألها العابرون:

- هل تأتي معنا يا خالة؟

تقف وقد ذوت ملامحها على سياج الشوك، قالت بنبرة يغلفها الأسى:

- إلى أين؟! ماذا تبقى؟

(٢١)

تنطرح نور على فراش صديقتها، تضم الوسادة لخدها، تترقرق من عينها دمعة، توجع روحها تنهيدة مسافرة:

- مريضة أنا، الأوجاع تسكن جسدي.

تحاول حنين أن تبثها القوة:

- أنت بخير، صدقيني يا نور، كل ما تشعرين به أوهام.

- فقدت مناعتي، بت فريسة لأي كائن يفتك بي، عظامي تتفتت تحت جلدي.

رفعت يدها تتحسس أول المفصل من كتفها:

- هنا تذوي عظام المفصل، إبنة خالتي تفوقت في علوم الطاقة، وضعتني على الجهاز، صدري طاقته مفقودة، عظام كتفي واهنة.

بنبرة مفعمة بالأسى همست حنين:

- تباً لأمريكا ومن يعيش فيها، كل ما تعانيه بسبب الحياة هناك. كنت أظل واقفة فوق العشر ساعات، وكل هذا لأجل أوراق ابني، سنوات طويلة من العذاب والتحمل، قد تكتمل أوراقه ويحصل على الجنسية، شبح الترحيل يطارده، ولا يحمل إلا وثيقة سفر فلسطينية، وإن تم طرده لن تقبله الأردن، ولا مصر، حملت ملفه للمحامي، أرسل الأوراق ويكون الرد: "فقدت بياناته"، كان لابد من المواجهة في دائرة الهجرة، ذهبت مع ابني لأوضح موقفه القانوني، نودي اسمه دوني أنا، انتظرت والوقت ينهشني، أحاول النظر بين فتحات الأبواب، لمحته في الردهة ورجل الشرطه يدفعه للحائط، يرتطم رأس ابني، يتهاوى جسده تحت الجدار، صرخت، حاولت دفع الأبواب للوصول إليه، يشيروا إليّ "ممنوع" الدخول يا سيدتي، هذا ضد القانون، أوراقه لا زالت في يدي.

تتابعت أنفاسها، ينتفض صدرها تحت قميص النوم، ترفع ذراعيها، ثم تلقيهما جانبا، بنبرة متداعية للوراء تردد:

- تعبت كثيرا.. رحلتي طويلة مضنية.

حنين تلاحقها قبل أن تمضي لغيبوبة النسيان:

- أكملي يا نور، هل استطعت الدخول؟

- في غفلة من الزمن، دفعت الباب قبل أن يوصد في وجهي، تسللت عبر الردهات أبحث عن محمد، قابلني الضابط، هاجمني بحدة، وتراشق الأسئلة:

- كيف تجرئين وتصلين إلى هنا؟!

صوته أرعد أوصالي، رفعت أوراق ابني قائلة:

- هي سليمة، ولم تردوا، كل ما جاءني منكم أن أوراقه مفقودة "أي كان أخرجي من هنا".

لحظتها فتحت حقيبة يدي، وأخرجت جواز سفري الأمريكي وصحت به قائلة:

- أنا مواطنة أمريكية، وابني هنا، ومن حقي أن أعرف مكانه.

قالت حنين:

- يا إلهي قد يسوقوه إلى معتقلات جوانتامو، ويقيم في أقفاص حديدية معصوب الوجه.

- نعم.. نعم.. لحظتها تغير وجه الضابط وطلب مني الهدوء.. عدت أدراجي أنتظر أن يفتح باب البيت ويدخل محمد، طال بي الوقت هناك، عقدت النية أن لا أعود بدونه.

قطي "سنسن" يعيش معي دون أوراق، يراقبني في خروجي كل يوم، يقف على حافة الشباك، يشد الستارة، فتكشف له الطري انتظاراً لعودتي.

أوراق ابني التي جمعتها لسنوات طويلة طوق أمان، أعاد ابني إليّ، كان من المستحيل أن يعيدوا شخص على قائمة المبعدين. في لحظات بكائي المريرة يترنح "سنسن"، يقع على الأرض مصاب بشلل نصفي من فرط حزنه عليّ، يعيش معي كأنه روح تحرسني، من ينظر إليه يخاله كلباً مدرباً، ينام عند قدماي، ينفذ دفئه إلى جلدي، يصلني الأمان منه، هل هو ما تبقي لي من غربتي؟! وأنت يا حنين حولك قطيطات، بل عائلة من القطط.

- لا أستطيع التخلي عنهم، كيف ألقي بهم إلى الطرقات يعيشوا تشرد وضياع، في غزة كانت القطط تموت، والشوارع منها خواء، السموم نثرت في الأزقة وكل مكان، ما أثار دهشتي، ونقرت التساؤلات رأسي، يوم زرت خالتي بعد غياب سنوات طويلة، ظلت كما هي، ضئيلة الجسم، منمنمة الملامح، على ابتسامة لا تغادر وجهها، أشارت لي أن اتبعها، نهضت وراءها، أخذتني لحجرة صغيرة، في زاويتها سل مغلف بالقماش يضم قطيطات وليدة، تخبئهم في زاوية معتمة، عدت أدراجي أسأل "لماذا كل هذا الخوف على قطيطات وليدة؟! ما الذي يربط بين قططي في المنفى وقط نور في أمريكا، نور تعود للحديث عن قطها:

- القط له خصوصية، يحب، يبتعد، ينطوي، ليس من السهل مصاحبته.

أذني قط حنين ترتعشا، يرهف السمع، تنغلق وتنفتح، هل تعرف نور لغتهم؟! أم هي لغة "سنسن" الذي علمها حديث القطط؟

تتكوم نور في فراشها، تنهض، لترفع عن صدرها قلادة حجرية، أحجار صغيرة متراصة بألوان صافية أخذت من زرقة اليم، وسماء الأرض، الدهشة تقفز من عين حنين، قالت لها:

- هي أحجار تغذي جسدي بالطاقة، أغسلها في المساء وأعيدها لصدري، تمتص سموم الجسد وتبثني عنفواناً ونشاطاً.

ابتسمت حنين مشيرة لها:

- في هذا الصندوق أحجار من كنعان، صخور ناعمة الملمس، جمعتها في عقد، انفرط مني، لملمته هنا.

التفتت إليها قائلة:

- لا يا حنين، أعيديه إلى صدرك مرة أخرى، فتزيدك تلك الأحجار قوة، أحجارنا نادرة، وقوتها نافذة. تقلدي أحجار كنعان قلادة يا حنين.

(٢٢)

ربيحة غارقة في رعاية أطفالها، تسأل صغارها:

– انظروا هيئتي، صارت مرآتي وحيدة لا تراني على مدار الأسبوع.

ترفع صغيرها، تلقيه على كتفها المعروق، ويدها الأخرى تطوي اللفائف، وما تلبث أن تنتفض لوجبات وضعتها على عين النار، تمضي مسرعة، تحاول اللحاق بلب قد يستشيط الطعام منه، تتنبه لزجاجات الحليب، تهيئها لصغارها، تجس حرارتها، لتطمئن أنها مناسبة لأفواههم الرقيقة، أحيانا تناولها لزوجها، ليؤكد لها أنها لن تلسعهم، تجر عربة وليدها وراءها، حيث مجلسها، وسرير آخر قواطعه من حديد مقوس، تلكزه بطرف قدمها، فيتأرجح به حتى يأخذه النوم، السرير الحديدي يعض بلاط الحجرة دون جروح، يعض الأرض الملساء بحنين يدغدغ أحلام طفلها.

أبو محمد لا يتأخر عن مساعدتها، وهي لا تمانع، بل تطلب منه حمل الصغار لفرشاتهم ولفهم جيدا مخافة البرد، يحفظ وقفتها في المطبخ، وهي تقلب في قاع الإناء، إن لم تجده حولها، تحدث نفسها:

– كم أهملت في نفسي، حتى شعري لا تمسه أسنان المشط لأيام طويلة، الصغار يبتلعوا الجهد والوقت.

يسمعها زوجها، يهون عليها:

– أدعوا الله أن لا يحرمنا منك أبدا يا ربيحة.

تحمل صينية القهوة، تأخذ جانبا من شرفة الحديقة، تهدأ قليلا من عمل يوم طويل، تبدأ حواراتها معه، وتلمع من عيناها روح المؤانسة:

– تعرف يا أبو محمد، مثلي من الأمهات عند اليهود يخصص لهن راتب إذا زاد عدد الأبناء عن الأربع، وحين يحالف الحظ المرأة وتلد توأماً، تفد إليها عاملة متخصصة لرعاية الطفل، تتردد عليها يومياً، تحمل لها علب الملابس والغذاء، حلوى وألعاب، الأم تدلل لدى اليهود، ما عليها إلا أن تلد فقط، كل ما أسمعه يصيبني بالخيبة والحزن، صوت إذاعتهم يردد دوماً عبارات التشجيع والترغيب على الإنجاب، وكل من كان داخل الخط الأخضر.

أخذتها تنهيدة بعيدة إلى فراغ مريب، يغرق حبال الكلام فيها:

– صار الوطن خطوطاً، أصفر، أخضر، وأحمر أيضاً.

أبو محمد يفرغ فنجان قهوته في جوفه ويضعه على النضد، يلتفت إليها ودهشة تراوغ حدقة عينيه:

– ما بالك يا ربيحة، أننجب الأبناء وننتظر معونة تأتي إلينا منهم، وحدي الله، ما يحدث هو برنامج وضعته الصهيونية لزيادة أعدادهم، بالإضافة لترغيب من بالخارج، وجذب مهاجرين جدد، يفدون لأرضنا، يلجأوا لكل حيلة ووسيلة لاستمرار كيانهم، أما نحن فما نعيشه على هذه الأرض هي حياة لنا من مئات السنين، لم تنتظر أمهاتنا إعانة لنحيا بها، وسيعيش أبناؤنا كما نحن يا ربيحة، إهدأي، ولا تفكري، هي خدعة كبرى، حين يكبر أبناؤهم سيلقوا بهم لمؤسسة الجيش، ويصيروا زهوا ذابلة في عمر الشباب.

– صدقت يا أبو محمد، ولا تنس أنهم يلقوا بهم إلينا، يقتطفوا من عمر أبنائنا، النساء لا تفارقهن دمعات يذرفنها على الأبناء، المرأة خلعت قلبي يوم حكت لي "عاش معي خمس عشر ربيعاً، خرج من مدرسته، وأخذ طريق العين ليرتوي بماؤه، رصده قناص منهم، رحل عني، لم يبق بجواري سوى خمس عشر ربيعا".

– ما بالك هذه اليلة يا ربيحة؟! هل آتيك بحكايات تشبه حكايتك، بلون الخط الأحمر الذي توقفت عنده، الوقت تأخر بنا.. غدا أنا مطلوب في مكتب التحقيق، وسأصحو باكراً.

– ربنا يستر علينا منهم، لا يصيبك القلق، كل يوم يجهزوا قوائم أسماء يستدعونهم، لكي لا ننسى أنهم هنا.

(٢٣)

"علي أبو عواد" من قرى الشمال، حط برحاله على أرض أمريكا، بفنه يريد أن يصل إلى الآخر من هناك، يتحاور معهم بثقة لا حد لها:

- أحمل حقيبة من العذاب لأعدل قضية على وجه الأرض، أعترف بالإنسان.

"علي أبو عواد" يرافق "روبي داملين" من شعب إسرائيل، بفنها تريد أن تعبر إلى عقل أمريكا كلها، تحمل صحاف خزفية، نقشت بحروف العبرية، يديشية، صحاف الفلسطينين تقابل صحافهم، علي ينشد سلاماً من الإسرائيلين، قالت روبي، وعلى ذات المنهج الذي يؤمن به البروفسور "شموئيل روبيه" ولكنها تقطع شريط وتوصل شريط:

- حرب ثمان وأربعين، حرب استقلال لإسرائيل، ونكبة للفلسطينيين.

روبي تضع كل أطراف اللعبة في أرجوحة واحدة، يصرخ أبو عواد:

- أحمل معي حقيبة من العذاب.

(٢٤)

في مساء ليلة دق جرس هاتفها، تناديها مدينتها البعيدة، تلقي إليها بصوت أخيها، الأصوات تناديها على حبل هواء نقية واضحة، تهمس وردة لأبيها أظنها لا تسمعنا.

صوتها يغيبه حبل هواء يحول ما بينها وبين الوصول إليهم، أصواتهم تسكن أذنها، دق قلبها، هللت روحها بالبهجة، "هم يتحدثون.. آمنون هذه الليلة، لم تزرهم طائرات الإف ١٦، تناديهم قائلة:

- أسمعكم الآن.

صوتها يبتلعه المدى، وأصوات لهم تسكن قلبها ولا تغادر.

(٢٥)

كيف رأى حسن وردة من عينان استقرتا في قاع بحر مالح من مدينة يافا.. وردة يحاصرها الخوف، تخطو على بقايا من دمار، حنين يقابل صوتها، صوت أخيها، بقلب مؤرق بالعذاب تقول له:

- أرفع كل الشبابيك، والصق على المرايا، حاذر من ألواح متكسرة.

- لم يعد في بيتي زجاج، كله تهشم يوم الضربة الآتية من مشارف "بيت حانون" صار البيت مشرعا للريح، نسمع صفيرها، تستغيث من الأرض، وكيف تستقبل غدها.

حسن يخاف على الزهرة والوردة اللاجئة، لم يتردد أن يجعلها من بين أسماء أحبها. من قاع بحر مالح يشارك حسن وردة أحلامها وضياعها.

(٢٦)

حسن في كل مكان.

يشارك حنين بلدتها القديمة، دراجة لونها جميل، هي كالبحر، لها مقعد مريح، وصوت جرسها لطيف.

دراجة تطير تأخذه إلى كل مكان يريده، كل ما عليه أن يغمض عينيه، يرحل سابحا في سماء بلدته القديمة.. وحنين وقلب لها يطيرها حتى وإن أتت الريح معاكسة، قلب لا ترده دوامات الهواء ولا عاصفات تدفع سحب داكنة.

مدينتها قديمة، لها نواة في بقعة جبلية، بناياتها متلاصقة، حارات وأزقة مرصوفة بالحجارة، سقوف بناياتها أقواس وقباب، وسبعة أبواب.

* * * * *

حسن في كل مكان.

أمه اسمها ربيحة كأم حنين، وبلدته الخليل.

حسن يعدو يسابق الريح، يبحث عن وردة، يركض كل يوم فوق أسطح المدينة، يحلم بزهرة الحب، ومع طلوع الشمس يبدأ يومه في البحث من جديد.

تعلم كيف يصنع من الغيمة، خيمة، ويقبل الماء بفمه، شرب السمك، تلونت الغيمة، وأنبتت الأرض قوس قزح، يبني من الغيمة بيتا، من فوق شرفة الغيم يطل على الأرض، لانتظار رحلة قادمة.

حسن في كل مكان.

يبتلعه بحر يافا، يذوب في ملوحته، يصل حد عمق العمق.

هكذا أراد أن يكون.. يحفر أسمه في طينها، تنبت من روحه نبتات لم يرها بشر.

يغلق عينيه لا لينام، بل ليرى، باحثا عن حلم جميل في موجة مسافرة، تعبر البحر في السماء الرمادية، ولأنه يحب الليل والسفر فقد حمل القمر الصغير ومضى.

(٢٧)

تفتح حنين لوردة رسومات عن دراجة طائرة فوق القباب والأقواس، وبوابات سبع، دراجة مزخرفة لهـا جرس، ترن.. ترن.. تسألها بنبرة أسيانة:

- ما رأيك يا وردة؟

تفتح وردة عيناها عن آخرها، قالت:

- لم أر مثل تلك الدراجة من قبل، دراجة تطير دون الأجنحة.

تقلب الصفحات، يظهر لها وجه الحوراني، في همس صامت لا يبرح الحناجر، تسأل حنين :

- بماذا توحي لك هذه الشخصية من خلال الصورة؟

لم يرف رمشها عن رسوماته التي تراها، همست:

- أين هو الآن؟

- عبرت به موجة من يافا، وألقته نبتة تجذرت في قاع البحر.

تقلب في رسوماته "المرأة تنطرح على حبات البرتقال، تطلق ساقيها للريح، تمسك بآلتها الموسيقية، تريح خدها على حافتها، تعزف لنحلات استلقت على أوراق الزهور، فتداعب الأحلام خيالاتهن، وصبية صاحبت الوقت على الانتظار، طرزت على أكمام ثوبها، ونقشت على راحتها حروف من كنعان، تسافر على طريق الحلم، تقتفي الغيمات، لتصل فضاء مدينتها، تشاهدها طرقات وبيوت، لا تعيقها حواجز وجدار يظهر لها من فوق السحاب خيطا متهالكا يتلوى كأفعى هاربة من قيظ الأرض.. تفيق مدينتها، تنظر الصبية، تنهض، تتشكل لها من جديد، بطرقات جميعها مفتوحة، وأبواب وشبابيك مشرعة، يفرح قلبها، تريح خدها على راحة يدها، تسدل جفونها على صورة مدينتها المطرزة من غيمات مسافرة، تنقش على قدميها، وتغزل من شعرها حكايات قديمة لم تبرح مكانها".

(٢٨)

تعرف مواقع أقدامها الصغيرة في شوارع القاهرة، ترتقي الأدوار العليا، تسمع نغمات الجيتار "أنا بحبك يا مصطفى" القاهرة في وضح النهار حركة لا تتوقف، تشدها أمها من يدها، تبتلعهم حارات وأزقة، تسمع رغبتها في شراء حاجياتها من "الموسكي".

الزحام شديد في قيظ الشمس، ويد حنين في يد أمها، السواعد متشابكة على لحظة انفلات راحتها من يد أمها.

مضت بين الأجساد تشق طريقها، لم تتوقف خطاها، شريط حياتها الصغير يمر بها، وعن مصير ينتظرها، هل ستعمل خادمة في أحد البيوت، وتضل طريق عودتها، تفقد أهلها، وطنها، لم تفق إلا على يد تشدها بقوة، كان وجه أبوها.

(٢٩)

تجيد كتابة الكلمات على ورق مساحته صفراء، رسائلها لأمها بحيرة دموع، يحبسها أبوها في جيب سترته، مجـــرد أن يناولها أول رسالة، تنساب دمعات أمها "ربيحة" تخبط على ركبتها، تخنقها عبرات حارقة:

– إبنتي في الغربة.. آه يمه، أعرفها لا تشكو ولا تتحدث لأحد، أنا أمها أعرفها عن دون الناس.

قبل أن تكمل جملتها، تلتفت حولها تسأل في لهفة:

– أين حقائبي؟ أريد السفر إليها يا أبو محمد.

– الطرق مغلقة.

– لن يهمني كل هذا، إبنتي في محنة، يا لكم من أناس غليظوا القلب، بلادكم من جبال، والحجارة تسكن قلـــوبكم، إلا حنين.

تسكت قليلا وتعود معاتبة في نزق:

– كيف تحتفظ برسالتها أياما، ولا تعطني إياها، قلوب قدت من صخر.

يلاطفها في حنو يغمر كلماته:

– رحمة بحالك، وما تفعلينه بعد كل رسالة، اتركيها تصلب عودها.

تولول باكية، تعصب رأسها وكأنها تشحذ همتها:

– لا أستطيع، إلا حنين.

يتغامزن الأخوات، يرددن كلماتها: "إلا حنين !!" أما نحن؟!

(٣٠)

ماجد يهديها هذا الصباح صورة، يوقع أسفلها: "من مخيم جباليا"، وهي التي تعرفها وتحفظ أزقتها، بخطوط سوداء غليظة، كلمات خطت على جدرانها، خطوط الأحمر تتشابك والأسود، أبواب المخيم دوما تسبقها عتبة أسمنتية، ما أن تعبر عنها، حتى تأخذك الأرض إلى أسفل، فترى ما لا تراه عين، الأسلاك من الأسطح ثائرة على مسافات تقطعها، فيثب بعضها لفضاء الكون، أسلاك تسكن فيها الكهرباء، والذبذبات ترصد الأفئدة، وثورة العيون، وصرخات سكنت الحناجر، فأخذتها لفوهة الصمت، الأغطية وجدت لها مساحة على جدار مهدم، قد تطول الشمس وتأخذ من دفئها إلى أجساد صغار تلتحف الأرض.

المخيم حكاياتنا.. المخيم حياة.

لا تكف الخطى أن تواصل طريقها من فتحات ضيقة، إلى مدى فسيح تنشد الشمس.

كتب لها ماجد:

"كان لي دراجة، بثلاث عجلات، تركوني أصحابي فجأة، وصرت وحيداً على شريط قطار مهجور يصل ما بيننا ومحطة رمسيس، التقطتني يد أبي، وأعادتني إلى البيت، صوت دراجة حسن أعادت لي طفولة بعيدة، لم ننل منها إلا مشاهد متناثرة من عمرنا، مشاهد تطايرت عبر فوهات البنادق ومنع التجوال والحصار، لم يتبق في ذاكرتي سوى دراجة حسن، وصوت لطيف، يطن في الذاكرة ترن.. ترن".

(٣١)

"**اسحق باشفيس سنجر**" ولد في حي فقير بالقرب من "وارسو" عاصمة بولندا.

حنين ميلادها في "غزة"، في منزل شبابيكه مشرعة تجاه البحر، حوائطه تقبل جبين الشمس كل مغيب.

والده وجده لوالده حاخامين، والد حنين وجدها لوالدها في دمهما أصول وجذور من أنساب العرب، حفظ الابن عن أبيه تاريخ القبيلة.

الأدب في نظر والد "إسحق" تخلياً عن العقيدة، في نظر والد حنين، فصاحة وهبة من الله، خص بها عبده الفقير إليه.. "اسحق" يقضي طفولته في قرية جده المسماة "جواري" قديمة الطراز لم تتغير لأجيال عدة، في قلب الغاب، كانت ملهمته في أعماله القصصية والروائية.

ملامح حنين، تأخذك لتلال وجبال، تحفظ شارع بيتها، شارع فلسطين الطويل، ولها صديق يقيم على أطرافه "ماجد شلا" يعرفها من دراجة كانت تمتطيها في طفولتها، وتعرفه من زيارات الأهل لبيتهم، ماجد يقطن شارع فلسطين، ومنه يرسل وطن من صور، من أماكن شهدت أحلام صباها.

يهاجر "سنجر" لأمريكا، يحصل على جوائز.. وحنين لم تنل أي جائزة.

(٣٢)

عطاء.. تضحية.. رحيل..

ودراجة تشابه دراجة حسن، خلعت عنها ألوان البهجة، وزهرات اللوز حين تغري الريح لتطيرها.

ولا أجراس تزغرد للفضاء، ولم تغتسل من شفق المغيب.

دراجة من مخيم الشاطئ، غابت مباهجها، بقايا من الأزرق على جناحها الخلفي.

دراجة تناثر ريشها، وعجلات لا تكف عن دورانها، يمتطيها الصبي، يلاحقه الحلم، كأحلام حسن، ولكن بدراجة لا تستطيع أن تقفز عن جدار بيوت واطئة.

دراجة لا تمتطي صهوة الريح.

* * * * *

ماجد يرسل بزهرة ذابلة، يقول لها:

- أبحثي عن حسن.

مرفق طي الرسالة صورة من عين عدسته، دراجة تشابه دراجة حسن، على مفترق طرقات فقيرة من مخيم "الشاطئ" تحاول أن تقرأ خطوطا تملأ مساحات حوائطه، بخط أسود غليظ "شوكة في الحلق".

وصور ملصقة، غابت ملامحها لرجال ضحوا ورحلوا، تحاول التعرف على وجوههم لتحضر الأسماء.

يغيب الطريق، يتلاشى الجدار، وتبقى الملامح وحيدة متشابهة.. ماجد يعلن عن مرثيته لحنين:

- ابحثي عن صاحبي، ربما يكون مر بتلك الطرقات.

تكتب وردة لعمتها:

- حكايات حسن من صور أخذتني لعمق العمق، أخاف أن أضل طريق عودتي، بعد أن ضيعتني حكايات من صور، تزغرد وترقص حول قرص الشمس، تسدل الشمس رموشها، تخبئ حكايتها معه.

(٣٣)

حنين تتخبطها دوامات الوجد والشوق، في لغة تتسلل إليها، وسنارة علقت بقلبها.

يصل إليها عبر طرقات بعيدة من ذات الرقعة الداكنة، رمادية اللون، ملقاة على شاطئ "غزة" يمتطي دراجته، يـــصل إليها في وقت قياسي، يستقر على أول درجة من بوابتهم العريضة، تداعب وجنتيها نسمات تتسربل إليها من وريقات داليات العنب، تحفظ رائحته، تتنفسها في أرجاء الدار، ينتظرها في حجرة الدرس، يعلمها كيف ترسم الخطوط، وكيـــف تترك لسن القلم مساحات بيضاء، يمضي بالقلم أمامها، يرسم الجبين، حافة الأنف، ينتهي بذقن الرجل، وكيف تختلـــف الخطوط من جبين المرأة وأنفها ورقبتها، تنتهي كل خطوط النساء رقيقة، تتعثر ملامح الرجال في يدها.

علمها كيف تكتب أول حرف من اسمها، وكيف تعلق أول حرف من اسمه قلادة في صدرها، كلما بعدت المـــسافات، تلتقطها بأناملها، تجدها مضمخة بعرق صدرها، تتأمل حروف اسمه، تسري لروحها ذاكرة لا تغيـــب عنهـــا، تقودهـــا الخطى إليه، يستلقي على تلة رملية من الشاطئ، يقرأ رغاوي الموج، وحمرة المغيب، يرسم حلمه، وحلمها. تعـــرف موعدها معه، تصير بجواره، تحفر في الرمل، ترسم ويرسما معاً.

(٣٤)

تعود حنين..... يلتف حولها سياج مدينتها، تسجن عيناها على آخر سورها، تلتقط النجوم، تخبؤها تحت جفونها.

(٣٥)

شنق الرجل نفسه، أرهقها تذكر منظره، يوم تحايلت وانسلت من بين النسوة لتنظر ما في تلــك الحجــرة المعتمة.

كان مسجى، وزرقة مضمخة بالحمرة حول رقبته، من أثر حبل شنق نفسه به.

وجهه متورم، عيناه السوداوان، أسدلتا للأبد.

الموت حين قبض على رقبته، فأحالها لأزرق قاتم، وحبل حز ونحر وأسال دماء.

مراسم الدفن، قبور ورمال، في عين الصغار.

لا زال الموت هو السر المريب الذي يؤرق منامات طفولتهم.

"ما معنى ماتت، روحها طارت، روحها الآن تمشي هنا؟".

(٣٦)

تتلاحق الحقائق على عقل حنين، وتوجع قلبها، سينما وصهيونية، أفلام تتقاطر وراء أفلام، عدسة الزوم الخفية، وكيف تسحق الحقيقة وتقيم الزيف، تخلق منه خلقا جديدا يخطف العين، ويسحر الفؤاد، فيلم "الأرض" "بيت أبي".

دوما يدور البحث عن الأب المفقود الذي ابتلعته معسكرات النازية، والبحث دوما على أرض فلسطينية "آل روتشيلد" وسينما الياديشية التي يجيدها وبطلاقة "اسحق سنجر" في "شوشا".

"الديكتاتور الكبير" يخرجه شارلي شابلن، عين العدسة تتعملق، هي عالم السحر في روح حنين، تحفظ ملامح وجهه، عينيه الضيقتين، حركاته المتقافزة، خطوته العجيبة، بنطاله الواسع وامرأة رشيقة يتودد لقلبها، يحبها، يحنو عليها، يثبت وردة في ياقة قميصها، يحث الخطى من مخافة فقدها، ينته فيلمه القصير، مغامر يمتطي الريح.

تلاحق عقارب الساعة وعدسة التصوير تلهث وراءه، لا تلاحق حركاته.. منه أتقنت فن المقالب، منه تصنع الضحكات، فتخرج من سجن قلب حزين.

هو "شارلي شابلن" لم تعرف انه عاش بوجه أثقلته مساحيق الطلاء، ولكنها أحبته من خلالها، ولم تعرف أنه من أم يهودية، وأب بريطاني، وأنه في الدكتاتور الكبير، كان اليهودي الفقير.

عاش في قلبها زمن طويل، ضحكته على خط الحياة، وحكايات له من خلف قناع، "شابلن" يوم تكلم:

– أنا لا أنكر أصلي، كما أني لم أتباه به، أنا رجل لا يختلف عن الآخرين.

"شابلن" يرى نفسه من خلال فنه الذي تطهر به، قبل العهد القديم والجديد، يعادي حكومة بلاده من أجل قضية شعب لا تربطه به صلة، أما "جولدا مائير" على الضفة الأخرى تعلن وتفصح قائلة:

– أنا لا أعرف شعب بهذا الاسم.

عيون الصغار في العالم وفلسطين تشخص في مساحة شاشة صغيرة تأخذ قلوبهم وتحيرهم، يقفزوا من خلالها عن الحواجز والخوف، يضحكون مع شابلن، وحين يدار مفتاح الجهاز يصرخون في صوت واحد:

– اتركيه يا عمتي، ننتظره من زمن، نريد "شابلن".

هو أحب العالم من عيون الصغار، وهم أحبوه من قلوبهم..

يكبرون.. يقرءون.. يعرفون.

الجلاد هو الضحية، بقدر ما يعتبر الجلاد ضحية لنفسه.

كثيرا ما تحلق حوله الصحفيون، يريدون إجابات يدونوها، بثقة مجدولة بالنقاء يقول:

– لا أعتقد أنه ينبغي إرسال اليهود إلى فلسطين، معنى هذا أن يتم إرسال الكاثوليك إلى روما، الاستعمار حتما إلى زوال وبإرادة الشعوب.

وعلى حواف دائرة مفرغة، يعلن "بن جوريون":

"القدس جائعة، دمرت بعد نبوخذ نصر، ومرة ثانية يدمرها تيتوس الروماني ولن تكون الثالثة، ألا تريد أن تكون أول جنرال في جيش إسرائيل بعد ألفي عام".

"ادفع دولار تقتل عربياً".

بريطانيا تفتح أبواب السينما، تلصق الإعلانات "إنها أرضه".

"رام لوفي" وفيلم "خرائب قرية هيزا" يعترض "مناحم بيجن" ويمنع عرضه، فيلم يصور عمليات طرد أهالي القرية، تناقضات من مشاعر الجنود وأحاسيسهم بين الطابع اللاإنساني واللأخلاقي لمهمتهم.

"دانا بوليتي"وعلاقة الفلسطيني بأرضه، تبدأ فيلمها بقصيدة "سجل أنا عربي".

"غسان كنفاني" يكتب بأشلاء جسده المحروق:

- الآلة الجهنمية تسمى بالحركة الصهيونية.

فكرة اليهودي التائه، الجوال، الأزلي، الذي يحمل بعد عشرين قرن من حياته السلاح وفكرة الغزو، في مسرحية "الغريب".

"رمال الزمن" فليما يعرض في "يافا" بلغة اليديش.

الجوال يصبح رمز الصمود في اليهودية.

أما رواية "الأرض الجديدة، القديمة" كانت هي الحافز لقلب "هرتزل" الفنان إلى هرتزل السياسي، ولا يخجل أن يظهر ندمه الشديد لإضراره ترك نشاطه الأدبي ليتفرغ نهائيا للعمل على إنشاء المنظمة الصهيونية، تلك الآلة الجهنمية التي تقضم كل يوم أطراف أبو جبر، وعظام زوجته، وحسن الحوراني، وردة، حنين.

"المسيري" وكيف صرعته تلك الآلة التي يعرف "هرتزل" براءة الاختراع فيها، وكيف يخلق البطل اليهودي المعصوم في أسطورة اليهودي التائه، وعلى ورق غليظ محشود، تطوى فيها أكثر من مائتي صورة، ورسومات عن إسرائيل وتاريخ اليهود، وخطوط بيانية، صور ملونة للمدن، ألصقت على صفحات خشنة.

"هرتزل" جعل فلسطين مضاعة، تستلقي في حزن، تنتظر عودة اليهود إليها، ليقيموا عليها، ولا شيء عن شعب يعيش على ترابها.

لا شيء عن حنين الملقاة خارج حدود الوطن، ترقب تقطع أنفاسها ووجع روحها، ولهفة تقطن فؤادها.

يكتب "هرتزل" عن يهود عادوا ليقدموا خدمة للعقل الغربي، ويعمروا أرض خراب.

اليهودي الأزلي بطل الأرض القديمة، الجديدة.. ونجمة في الريح.. قرية "كوكب الهوا" لم يسكنها أي يهودي في تاريخها الطويل، وكيف يحولها الكاتب رمزا للدفاع اليهودي.

ونوبل ل"عجنون" لأعمال تدعو إلى التوسع واحتقار الشعوب، وقدراته العجيبة في مزج الموقف الديني بالموقف السياسي، حيث تقف بطلته المفضلة "تاهيلا" لتعلن:

- إني أدعو الله أن يأتي اليوم الذي تتوسع فيه حدود أورشليم حتى تصل إلى دمشق، وفي كل الاتجاهات.

"عجنون" وجناحاه يطوقا ليملكا الأرض كلها.. كيف يصور أهل حنين هناك، بشعب ميئوس منه، في درك الانحطاط، هل رأى جبل القدس يصرخ:

- يا سارية.

وصدى ندائها له رنة موجعة، يعود النداء كسيراً، حزيناً.

هل رأى القدس بنفسجية الشجن، وليلكية الدمع؟! دمع يخط على صفحة الحزن أعتى سطور الحداد.. والشعر ناي البلاد الحزينة.

"عجنون" هل يتباهى بنوبل، و"هرتزل" يتباهى برواية الأرض القديمة الجديدة، وآلة جهنمية تلتهم آلاف البشر وهم يقبضون حفنة من طين الأرض.

(٣٧)

على شاشة الحاسوب التقت عقارب ساعتيهما، الثانية والنصف ظهرا، حنين تدق على الحروف، تصل لحناً يفيض حبوراً على قلب وردة، صورة حنين صارت في بيتها هناك، تضيء حجرة نومها، وصورة وردة أمام حنين في مساحة حجرة ملقاة على حافة القارة الأفريقية، حرارتها تلهب جلد حنين، مسامات جلدها بؤر بركانية، تفيض حمماً، تلوك الوقت صبراً أمام شاشة الحاسوب، تتأمل قسمات وردة، وكيف تتماوج خصلات شعرها متراقصة، حتى تصل حدود كتفها. الحروف تلد التساؤلات.. من الحروف تفتح بوابات طواها النسيان، تسأل حنين:

- هل تركت جدتك ما يذكرك بها؟

- انتظري قليلاً.

غابت صورة وردة عن الشاشة، لتظهر حجرة حنين، هي ذاتها النافذة التي كانت تتسلق بأحلامها على قوائمها الحديدية.. هي ذاتها النافذة التي طالما تتسلل القمر من مساحاتها الضيقة ليفرح قلب حنين، يحمل البهجة لروحها، وعشقها الأول والأخير.. وكل المتطلعين لنوره.

هي ذاتها النافذة لسنوات طويلة تحميها من صقيع الليل، وتطلق في الصبح خيوط الشمس، تلامس فراشها وحاجياتها.. خزانتها، أدراجها، مراياها الساكنة فيها.

رحلت حنين.. وبقيت وردة.

عادت يدها مطبقة على الذكرى، أرخت أناملها لذكرى تستلقي في بطن يدها، ساعة قديمة، حفر عليها حروف لاتينية، فتحت بابها فظهر وجه أمها ربيحة، انتفض قلبها، همست من فؤادها:

- أمي تسكن ساعة قديمة، تراني من عقاربها.

عادت الحروف تروي:

- جدتي وما تركته لي، حيث كان الرحيل.

لا تنس حنين وجه أمها القابع في ساعة قديمة.. ولا حجرتها.. ولا فتحته شباكها.

(٣٨)

حنين وفراق تذوي على جوانبه ملامح وجهها، وهج روحها، قواها لا تقو على شدها إلى حيث منبتها.. ترابها.. طينها.. آخر مواعيدها كان انتظار على محطة وصول.. صبيتها تعود من رحلة بعيدة، طائرة تحملها، تشق الفضاء، تهزها الريح، ولكنها تمضي لتعيدها إليها. حقائب، هدايا، فرحة تسكن بؤبؤ عينيها لوحشة من فراق أمها.

كل صباح تجد على فراشها هدايا منسية في حقائبها، تقول لها:

– هذه من خالتي.. نسيتها.. وهذه أيضاً.

وقفت تفرد ضفائرها أمام المرآة، تحادثها:

– أمي هل تصورت أن رفيقتي على الطائرة في المقعد المجاور لي كانت يهودية.

اقتربت حنين من ابنتها، تصغي إليها بانتباه شديد، تسألها:

– من أين كان قدومها؟

– كانت في مطار فرانكفورت، مثلي أنا قادمة من وطنك، واسمها "تال" كانت غاية في الدماثة، ودودة، أعطتني عنوانها لكي أحادثها مجرد وصولي ل"مونتريال"، أبدت لي رغبتها أن تصحبني معها لأماكن كثيرة، أظن أن جزء من أسرتها يقطنون كندا.

– هل قلت لها أن أصولك فلسطينية؟

– لم أقل لها، كان من الصعب علي أن أخبرها بعد أن قصت علي بأنها أنهت خدمتها العسكرية في الجيش، ورأيت صور لها وقد قصت شعرها لما يقرب درجة الصفر، أكثر من الرجال، لم أعطها معلومات عني، هي من قدمت نفسها، وأنا أصغيت إليها.

– متزوجة؟

– هي في عمري، لم تتزوج بعد.

– وهل تواصلت معها بعد وصولك "مونتريال".

– لا أريد، لا أحبهم.. لم أحاول التفكير في التواصل.

كلمات صبيتها وضعتها على حافة بركان، وقفت تداري من ذهولها، يطن السؤال متواريا، يحوم، يقفز فوق كل الحواجز:

– من أين جاءها كل هذا الجفاء لهم ،وهي التي لم تقتلع من وطنها، ولدت بعيدة، وتعيش بعيدة. ابنتي تعرف الكره يا إلهي!!

كيف تسرب إليها؟! وسكن عظامها، ومسامات جلدها، هي لم تشعر كيف أعلنت رفضها، بداخلها تموج ثورة، من أين جاءت بها، وأنا التي داويت جراحي بضمادات النسيان.. البعد.. التناسي.

هل تشربت الحنين من خلايا دمي.. هل سكنت حدقة العين، فكان الوطن وسادة لأحلامها هناك.. كحلم حسن.. وأمنيات وردة.

هل سكنت تلال وجبال، وأطلت من شبابيك منسية.

عادت تمشط بمشطها، تفك ضفائرها.. وأخذت حنين مكانا قسيا، تطل فيه على فضاء يحملها إلى هناك.

(٣٩)

تفرقت فروع دوالي العنب، ومن بينها ظهر وجه الصبية، تشد وشاحا أسود على مساحة وجهها، تغيب ملامحها، إلا من عينان زرقاوان، هي عين بنات كنعان، الأنامل تقبض على الأسود وقد لفتها خواتم الذهب، نقش عليها حكايات قديمة معبأة بالأسرار، على ساعدها سوار الحية، يحتمي بشالها، يخبئ عيون من أحجار الزبرجد.

(٤٠)

عين الكاميرا تضيء على شاشة الحاسوب، يظهر فراش كانت تتوسده حنين، تتقلب فيه، تعانق أحلامـــا تشبه أحلام حسن، تدمع عينها:

- وطن في مساحة شاشة الحاسوب، يختزل من عين كاميرا بحجم العصفور، كاميرا لا تلاحقها قيود، ولا ترصدها عيون.

(٤١)

في منتصف البهو، تقف وحيدة، تضم الهدايا إلى صدرها، تطلقها على مسطح مكتبهـــا، بيـــاض عينيهـــا غارق في دمع لا ينفطر، تتحقق من ملامح وجهها، في عين المرآة، هل تحترق وتصير إلى رماد يذوب في حبة العين، تفتح لفافات الهدايا، قلادة فضية، تشي بأجمل المعاني، قطع صابون من حبات زيتـــون أخـــضر، آيات محفورة بحروف ذهبية.

الحزن يتسرب إليها، تقبض على قطعة صابون تقلبها في يدها، الماء دافئ، ينساب بغزارة، يتشرب الليف رغاوي بيضاء، تزيح بكل قوتها ما علق بجسدها.

أمها ربيحة يوم أخذتها إلى الحمام، أجلستها على لوح خشبي، تضم ركبتيها، وساعديها، تحدب عليهمـــا، تغلق أهدابها، تسلم وجهها كقطعة حجرية، تفركها عفية، تنزل يدها مع رغاوي الصابون إلى كتفها، تظهـــر عظام ظهرها مقوسة، تفرك بقوة، تغرقها من زيت زيتونها، لسعات الصابون تستقر في عينيهـــا، وصـــوت أمها محذرا بأن تغلق عينيها، وألا تفتحها إلا حين تسكب الإبريق، تستسلم لها، شعور بالأمـــان لـــم يمـــت داخلها بعد طول سنين.

قطعة صابون تعيدها لحوائط حمام صغير، على سفح جبل الناموس، تسحبها أمها من يـــدها، تعـــود بهـــا لامعة، تبرق.

* * * * *

تلف الصنبور، تغلقه، تتسرب قطرات الماء لجوفه، تلف جسدها بمنشفة تمتص ما تبقى من بلـــل، تـــزيح يدها غبش المرآة، تنظر وجهها، تمرر أصابعها على ساعدها، تنشد ملمسا قديما، لمعـــة زجاجيـــة تجتـــاح جلدها، كانت تراها من زمن بعيد.

تشد ملابسها المتدلية على الحامل، رنين الهاتف:

– تأخرت كثيراً يا حنين أين كنت؟!

– أخذت حماماً فلسطينياً.. بت امرأة أخرى.

(٤٢)

في هذه الليلة الباردة دق هاتفها، تسمع صوته نقياً، تسأله حاله:

- أنا لم أغادر مصر من وقتها.

- كل هذا الوقت!!

- نعم أمضيته في المستشفى مرافقاً ل"أم جبر".

- وكيف حالها الآن؟

- نزعوا معدن البلاتين من ساقها، وزرعوا لها عظام تساعدها لتعود لحالتها الأولى، لم أفارقها لحظة واحدة في رحلة علاجها، ماذا أقول لك يا أختاه عن رصاصة غادرة هي سبب تلك العذابات، دفعت كل مصاريفها، أحملها لأي مكان قد يعيدها كما كانت، هي رفيقتي وأم أولادي.

أخذتها تنهيدة حارقة، قالت له مؤازرة:

- أخاف عليك من بلاد الغربة يا أبو جبر، أنت أخي، صدقني أخاف عليك.

هتف يبثها قوة من نبرة صوته:

- لا تخافي على أخوك أبو جبر، أقدر على الغربة ولو كانت لآخر الدنيا.

كان كل ظنها أنه يتحدث معها من القاهرة، ولكنه فاجأها حين قال لها:

- أنا هنا في مدينة العريش، أخذت شاليها على البحر أنا وأم جبر وصحبة لنا وأقارب، جميعنا ينتظر فتح المعبر.

- إذن أنت في العريش!!

- غدا سنكون في بلادنا، أو بعد غد.

أبو جبر وزوجته وعظام مزروعة في أماكن عبثت بها رصاصة تفتت العظام وتذيبها. أم جبر تقطع الرحلة عبر سيناء، تلتقط بقية من أنفاس على رمال شاطئ النخيل، قد يعيدها المدى في لحظة إلى مدينتها، بعظام مزروعة، تقتفي أثر الظلال، تشرع شبابيك بيتها. أم جبر لها وطن تعود إليه، حجرة صغيرة شرع شباكها على شارع صلاح الدين، من قلب المعبر إلى غزة.. الشجاعية.

حكايات "أبو جبر" تظل حاضرة في ذاكرتها، وكيف يحكي بلغة العارف، بثقة واضحة:

- من يكون مثلي، أنا أحسن من أي واحد متعلم، بنيت جامعة القدس المفتوحة، كل طلاب العلم يفدون إليها، وكلهم يعلم أن أبو جبر لم يقرأ كلمة، هو صاحب هذه الجامعة.

(٤٣)

في ليلة ندية تلتقط هاتفها، كان صوت أبو جبر، صوته مغلف بغلالة الوحشة والأسى، تسأله حاله، أجاب من أحلامه المبعثرة:

- لا زلت في مدينة العريش.

- من يومها لم تعبر للوطن؟! وأم جبر كيف حالها؟

- مرت بدوني.

- كيف؟

- أخذتها عربة الإسعاف، فهي كما تعرفين تعاني، تعجز عن نقل خطواتها بسهولة، بقيت أنا سليم الجسم، نادوا على اسمي على آخر لحظة، بأن أعود من حيث أتيت، بكت أم جبر، وتوسلت لي بأن آتيها على ورقات تطيرها الريح إلى هناك، ضحكت، ثم أخذها البكاء، وعدتني بأن تزوجني بامرأة أخرى جميلة، تمشي، وتتقافز كطائر الكركز.

صمت قليلا، يتنهد من قلب موجوع:

- شهر وأيام وأنا بعيد عن هناك، من ساعة واحدة أصبحت جدا، رزق ابني ب"كمال"، كم أستعجل الوقت لأضمه وأملأ عيني برؤياه، قالت بلهجة تغمرها الفرحة:

- حفيد هذه الليلة !! واسمه كمال، قد تكتمل سعادتك ويفتح المعبر وتعود لأم جبر، فتزهر أيامنا مرة أخرى.

ساد الصمت أثيرا ما بينهما، سألته:

- كيف تقطع الوقت؟

- ما بين البحر والرمال، أوشوش الأصداف، أودعها أمنيتي، أتلهف الأمل، أريحها على أذني، فتأخذني موجات هادرة إلى هناك.

- إه يا أبو جبر هل نسيت حديثك لي؟ بأنك القادر على الغربة، الدنيا كلها في قبضته يدك، يومها ضحكت من حديثك، وأنت أخذك إصرارك لتقنعني بأن منطقة " بولاق " في قلب القاهرة من السهل أن تتجول فيها، بل وتصير من أشد فتواتها، تفرد ذراعيك فيها وتقول "من يحاذي أبو جبر الفلسطيني؟" قلت لك إحذر من التباهي و....

شعرت أن حديثها ذهب لنفق طويل، يحتله صمت حزين، واصلت معه، تنشد الحوار:

- تعرف يا أبو جبر، الصواريخ التي يطلقونها على "المجدل" و"إسدود" تأتي علينا بضربات موجعة من طائرا الإف ١٦.

ليلة الأمس رأيت موت امرأة إسرائيلية، هرعت إليها ثلاث عربات إسعاف، رأيت الدماء واللهفة والهلع على كل شيء، وكيف تمتد أيديهم، يضربوا رجال الشرطة، ورجال الجيش وهم غطاء لهم، صرخ مقاطعاً:

- لا تعترضي على صواريخ القسام يا أختي، لماذا اغتالوا أخاك، لن نستسلم لهم، سأظل أنا وأم جبر، أبناء وأحفاد على خط المقاومة، وجامعة القدس التي بنيتها ستظل مفتوحة.

كانت تتوقع منه أن يتفق معها في وجهة نظرها، لا أن يقابل حديثها بثورة أشد، رغم أنه ملقى على حدود بلاده، غمرها الخجل من نفسها، أما السؤال الذي فجره عبر خط الهاتف، وجه حبيب غاب بضربة غادرة:

- لماذا قتلوه؟!

صوته يتشظى في فضاء مدينة العريش، إلى رفح.. يمر بالمعبر، يعلو، تسمعه واضحاً نقياً.

- لا تسألي لماذا تطلق صواريخ القسام.

(٤٤)

حملت شاشة الحاسوب مجموعة صور مرسلة، لم يكن الراسل ماجد شلا، بل وردة، كان الملـــف كبيـــراً، يبتلع الوقت ليظهر فحواه، ينفتح الملف لها، تظهر صور، تغرقها الحيرة، تسأل:

- لماذا ترسل وردة هذه الصور؟!

الصورة الأولى..

دمار، وشظايا تتناثر على الحوائط، خزانات الملابس وقد انكفأت أبوابها، لعب الأطفال صارت بقايا.

الصورة الثانية..

زجاج متكسر يفترش بلاط الحجرات، الزجاج رسم أشكالا تجفل لها العين، قطع من ســـكاكين، مناشـــير، مشارط تستعد ليد جراح، يقطع اللحم، ويوصل شرايين.

في مساحة زمن، تمتد في مجلسها أمام شاشة الحاسوب، ظل السؤال، لماذا ترسل وردة هذا الدمار؟!

لم يخطر ببال حنين أن تلك الصور هي عين عدسة سكنت جدران بيتها هي.

من الصورة الثالثة، تشهق حنين:

- يا إلهي!! هذه حجرة أبي.

قذيفة الإف ١٦ تثقب الجدار.. تتمتم تائهة على مساحة الشاشة:

- هو سرير أبي، غطاءه الصوفي، مقعده، مكتبه الصغير.

ردم خرساني متناثر في مساحة حجرته المطلة على حقل الزيتون.

تكتب وردة:

- كل شيء تحطم في دارنا يا عمتي، الخراب كبير، الجانب القبلي أخذ قوة الضربة، ونحن كنا في الجانب الشرقي، لو كان التوقيت ليلا لما نجا منا أحد.

أنامل حنين تتهافت على مكابس ساكنة، تمسك بحروف الكلمات لتصل وردة:

- تبا لتلك القذيفة.. تبا لضربة صماء، عمياء، لا ترى من أعيننا أي شعاع من نور.

(٤٥)

تكتب وردة :

- أنا خائفة يا عمتي.. أخطو فوق بلاط دارنا، فلا يصلني إلا صوت زجاج يتهشم، يتفتت تحت أقدامنا.

- لا تخافي يا صغيرة، سيبقى البيت وأنتم، في حرب الأيام الستة، الخامس من حزيران، كانت الغارات تتناوب لضربنا، ليلا نهارا، لم يصب هذا البيت حتى بشظية واحدة، كنا جميعنا في ممر يوصل لسرداب معتم، ننتظر ضربة عمياء، صماء لم تصل إلينا.

أمسكت جبينها، ترفع رأسها، لأفكار ثقلت به، تسأل: أي يد تلك التي تقدر وتلقي بحمولة من قاذفات على أطفال يحتمون بجدران بيوتهم؟! كيف يعود هذا الجندي ويوقع على أن طلعة جوية قد تمت بنجاح، أصاب الهدف، وينام بين أبناءه، أو في حضن أمه؟! كيف تزوره الضحكات، وتفتح شهيته على أكلات من ليلة السبت؟!

هل يكبر كيانه باغتيال ضحكات الأطفال؟

هل يتجذر أبناء صهيون في بحيرات جداولها دماء؟

هل يجمعني به لقاء، وأحكي له عن بيت لم تخنه أعمدته، ظل صامدا طوال نصف قرن، بيت لم يفرط أصحابه ولم يساوموا.

قذيفة تغتال من حجرة أبي رحلة حياة.. وهو الراحل عنها.. كيف يستشعروا أنفاس الأمكنة، فيخططوا لاغتيال المكان وذاكرته.

في حرب الخامس من حزيران، خرج أبو محمد إلى الحديقة يتفقدها، غاب وقت ليس بطويل، ظهر بقامته المديدة، قائلاً:

- الحمد لله يا ربيحة، لم تصبنا شظية واحدة.

حنين تستسلم للوقت، وتعرف يومها ماذا تعني طلعة جوية، قلبها الصغير يحسب دقائقها بعدد سنوات عمرها التي عاشتها، وقت لا يمر يتجمد على ساعة حائط صماء، الوقت يسكن للصمت، وتسكت كل أصوات العالم عنه.

* * * * *

وحكايات حكامهم الأوائل "دائما إبدأ واسبق واقتله".

"يجآل ليف" الحرب تحب الرجال.. والله يا أمي إني أكره الحرب.

أما "جدعون روزنتال".. "يوسف شريج".. "هشيكاه باراي".."حازاك"، جميعهم قتلوا في حرب أكتوبر، عبروا عن موقفهم من ظاهرة الموت "نحن نموت، وكثير من الجثث بين السطور".

* * * * *

تكتب وردة:

- عمتي أحب أبي كثيراً.

ينفطر قلبها على الصبية، تشاهد أباها يلم من حوله آثار الدمار، يسد فتحات خلفتها قذائف صاروخية، يمحو آثار من رشقات الرصاص.

– أبي يحمل حاويات بلاستيكية كل يوم، يقطع بها طريقا طويلاً، إلى أن يصل لمشارف "بيت لاهيا" يأخذ مكانه في طابور طويل، يملأ من عين ماء حلوة، لنشرب نحن.. الماء الذي نشربه ترسب الملح في أنحاءه، هم يوصلون أنابيب تنتهي بخراطيم حلزونية تشفط مياهنا، يذهب الماء ويترسب ملحه في القاع، فنشرب ملحاً.

– تعالي يا وردة حيث أنا، نعيش غربتنا سويا.

– لا، لن أبرح هنا، حتى ولو حالوا ما بيننا وبين الهواء.

لا تنس حنين أبناء المخيم.. الشاطئ، البريج، نصيرات، وتعرف لماذا تلونت أسنانهم بالأسود، الملح يستقر في حلوقهم، تتشربها أسنانهم، توقع شهادة من صور "فلسطيني أنا"

هناك تتلون الضحكات بالأسود.

(٤٦)

"**شموئيل موريه**" أستاذ الأدب العربي الحديث في الجامعة العبرية، يصرح وبكل طلاقة:

– أنتم من تذرون الملح على الجروح.

يقاطعه لسان عربي:

– قتل واجتياح.. وتطلب منا عدم الدفاع عن أنفسنا، الجدار، وقضم الأراضي على مرأى من العيون.

– سيدي، جدار يحافظ على أمن إسرائيل، ألا تذكر معي عام ٢٠٠٢ وكيف تسلل رجل منكم يعمل في كافتيريا الجامعة العبرية وفجر نفسه، ابنة أخي "إلعاد موريه" اخترقت رقبتها شظية، أنقذت بأعجوبة، شظية كان ما بينها وبين النخاع الشوكي اثنان من المليمترات.

– تتحدث وكأنك لا تعرف عن طائرات الإف ١٦.

– القتل من الطائرات ليس عشوائياً كما تدعون، بل تقصد أهداف بعينها.

شخصت حنين في وجه البروفسور "شموئيل موريه" تحضر الدهشة ويطن السؤال:

– هل فقد مساحة كبيرة من ذاكرته، ذاكرة البروفسور لم يعد فيها سوى ابنة أخيه "إلعاد موريه" وشظية أهدت إليها الحياة، وكل ما عداها سقط من ذاكرته.

ودعت حنين من عشرة أيام فقط إبن خالها، لم تستطع الوصول إليه، ولم تقف على قبره تذرف الدمع، رأته على شاشة التلفاز محمولا على الأكتاف، مسدل العينين، يمضي مسرعا لآخر نقطة وصول، كان يعيش الحياة، يكابد فيها، له من الأطفال ثمانية، واحدة منهن أسماها حنين، له سيارة ترسم وطنا يقيسه بحساباته هو، عجلاتها لم تتوقف يوما، كانت وقفتها الأخيرة أمام محطة الوقود، يملأ خزانها الصغير، مراياها مهشمة، أبوابها معطلة، إلا بابه هو، ما أن أوصد بابها، وترجل ليسدد فاتورة البنزين، وآخر فاتورة يسدد بها ديون الحياة، كانت الإف ١٦ هي الأسرع إليه، والقتل من الطائرات ليس عشوائيا، كما يقول البروفسور، هو لا يعلم أن إبن خالها رزق بحنين مرتان، الأولى لم تكتب لها الحياة، ورزق بأخرى، فكان الإصرار الأشد أن تظل حنين إسماً تحفظه الجدران، ويفرد جناحيه للريح من فتحات شبابيك غزة.. الشجاعية.. طريق صلاح الدين.

حنين هناك لم تزل طفلة، لا تفهم طقوس البروفسور، وكيف سيظل يردد، ويذكر حكاية عربي فجر نفسه، وإبنة أخيه التي أهدى إليها الحياة.

يقابله العربي بلهجة حادة:

– تدمروا الجامعات، تقتلوا الطلاب على مقاعدهم، وطرد للأساتذة، حتى رجال منكم أكاديميين يعملون في مؤسسة الموساد، "يوسي الفير" رئيس مركز جافي جامعة تل أبيب مسئول موساد، "عامي يالون" رئيس مخابرات سابق، "تيفي جوردن" في جامعة بئر السبع أقام العديد من البحوث في الجامعات الإسرائيلية هدفها تطوير في تقنيات السيطرة علينا، رصد حركاتنا، ودراسة المبررات للأعمال الغير أخلاقية التي يقوم بها

الجيش ضد الفلسطينين، ثم يأتي "أبراهام بورج" ويعرف دولتكم كدولة يهودية، يرفض الجدار، رمز العنصرية، والدولة العبرية تعني له، بلطجة، ومنطوية على نفسها، وسطحية.

سيدي البروفسير، سكوت الأكاديميين اليهود عن كل هذه الممارسات يعني تواطؤ تام مع الحكومة.

(٤٧)

في مساء ليلة دق جرس هاتفها، تناديها مدينتها البعيدة، تلقي إليها بصوت أخيها، الأصوات تناديها على حبل هواء نقية واضحة، تهمس وردة لأبيها أظنها لا تسمعنا.

صوتها يغيبه حبل هواء يحول ما بينها وبين الوصول إليهم، أصواتهم تسكن أذنها، دق قلبها، هللت روحها بالبهجة، "هم يتحدثون.. آمنون هذه الليلة، لم تزرهم طائرات الإف ١٦، تناديهم قائلة:

- أسمعكم الآن.

صوتها يبتلعه المدى، وأصوات لهم تسكن قلبها ولا تغادر.

(٤٨)

– قولي لي في أي غرف من الدار تنامين؟

– في حجرتك يا عمتي.

يرتجف قلب حنين لحظة سماع إجابتها، سريرها، مكتبها، وشباكين في حجرة واحدة، كانت تنام بجوار الشباك البحري، ترصد حركات الهواء، تحركات القمر، محمول على غيمات راحلة، وكيف تهدهد أحلامها نسمات بحرية، وسادة رفيقة بحالها، ما أن تضع رأسها حتى تطير على جناح النوم في رحلات بعيدة، تعيدها مع شروق الشمس من فتحته شباك شرقية، الغرب والشرق يلتقيان من حجرتها، وردة تسكنها، صوت وردة يعيدها، تسألها حنين:

– هل تذكرين يا وردة الليلة الأخيرة، أنا وأنت في ذات الحجرة وفي فراش واحد.

– وكيف أنسى؟

– كانت ليلة أخيرة لوداع أخير.

– لا، لن تكون الأخيرة، سأنتظرك يا عمتي هنا، ونقتسم الضحكات، والذكريات معا، تسمعيني هذا الحديث ليحزن قلبي لفراق طويل، وأنا أهيىء نفسي للأمل كل يوم، أمل عودتك إلينا مرة أخرى.

– تبا لمدينة نعشقها، يبني الموت فيها أعشاشا، يترصد أحباءنا.

تبا لمدينة نعشقها، لم تعد مدينة لنا.. ما سرها فينا؟! والموت يلتحف شوارعها، أسطح منازلها، فتحات شبابيكها، ونموت عشقاً فيها.

حكايات أمي وذكريات معها:

– ما في أحلى من بحر غزة، ولا رمالها، وتلالها، زيتونها، صباراتها.

غزة وعشقنا الوحيد..

– حبيبتي وردة، لو تعلمين أنك الزهرة الوحيدة المتفتحة في قلبي.

تصمت وردة عن حروف مرسلة، تعود تحاكيها:

– من تحبين أكثر أنا أم صبيتك؟

– لا أبالغ لو قلت لك قد تفوزين أنت، تنفسنا أنا وأنت عشق الوطن، وصرخنا أنا وأنت من أوجاعه، وصبيتي بعيدة بعيدة.

أنت الزهرة المتفتحة في قلبي، لن تسقط أوراقها أبدا، يا وردتي التي هناك.

(٤٩)

وجل قلبها، تتسارع خفقاته في صدرها لحظة ناولها صديقها كتاب طلبته منه، دسته في حقيبتها، وأحكمت عليه، قبل رحيلها إلى النوم، تضيء مصباح القراءة، تقلب صفحاته، تقرأ عنوانه، "هجرة اليهود السوفيت" د.عبد الوهاب المسيري، صفحات تطيرها بعيداً، وتعيدها مرة أخرى، على هم لم يبرح قلبها، تسأل:

– ماذا عساني أن أجد فيه؟ هموم تثقل هموم، غدا سأتهيأ له، أتهيأ لمن هاجروا إلى وطني، وأنا المقتلعة هنا، أرنو لمكان على أرض أقف عليها.. هجرة يعاكسها طرد وسلب.

من باحة ضيقة يغلفها النسيان، يتسرب شعاع، فتظهر الأشياء، تغلفها حكايات قد تكون منسية. يوم دق بابهم رجل يحمل أوراقاً بيضاء مسطرة، على مربعات، تضيق حيناً، وتتسع حيناً، كان أبوها قلق الحركة، كمن يبحث عن أشياء ضائعة، يتشاور مع أمها ربيحة في همس محموم، وهي تخبط كف بكف، انسل الأبناء لحجرات بعيدة، هرباً من خوف يدنو منهم، نبرات صوتها ترتعد على أنفاسها المتلاحقة:

– ياإلهي.. رجل الإحصاء وتسجيل الأسماء، إذن هي هجرة جديدة، أو طرد يترصد بنا بأسماء مرفقة بالكشوفات.

يحاول أبو محمد أن يقترب من غليان يتفجر على ملامح وجهها، يهدئ من روعها:

– هو إحصاء سكاني للمقيمين هنا بعد حرب ٦٧.

تدور في فضاء الحجرة، تهذي إليه بكلمات تغلفها الريبة:

– والمتبقي منا خارج بلدتنا، لم يعد لهم أسماء يا أبو محمد، آه يا وطن.

الرجل على وقفته، يحمل أوراقه، ينتظر سماع الأسماء ليدونها، إقترب منه أبو محمد وقال له:

– سجل على الصفحة، ربيحة أم أولادي، وأنا.

التفت حوله، فلم يجد أحد من بناته، أخذهن الخوف، يحتمين منه تحت الأسرة، داخل الخزانات، ناداهن، ليراهن الرجل، تدافعن بإتجاهه لحظة إطمئنن لسماع صوته:

– إقتربن مني، هذه حنين، حورية، وحفيدتي زهرة.

– هن كل أسرتك؟

– يا ولدي ما تبقى خلف السياج، يوم قامت الحرب كانوا بعيداً، وسيظلوا أليس كذلك؟

– معذرة يا سيدي، أنا مكلف أن أسجل من هم هنا، وأراهم بنفسي، أما الآخرين فأنا آسف لن ترفق أسمائهم.

– هل سقطت أسماؤهم؟

– ......

مضى الرجل بأوراقه، وجلس أبو محمد وزوجته يحصيان الأبناء، يرددون أسماء الغائبين، وأبناء جثم الخوف عله مآقيهم وصدورهم، يئن صمتا موجعا، تلكزه حنين:

– وأنا يا أبي نسيت اسمي؟

– أنت هنا يا بنيتي، باقي إخوانك سقطت أسماؤهم، لن يستطيعوا العودة إلى هنا مرة أخرى.

لم تفهم في سنوات طفولتها معنى ما سمعته من أبيها، قد تأخذها فرحة أن إسمها دون في كشف الإحصاء، وكتبه الرجل أمامها وهو يدقق النظر في هيئتها، لم تفهم ماذا يعني سقوط أسماء من المكان والذاكرة.

بكت ربيحة، ودفنت رأسها في شالها، تغرق في دمعات حارقة، لا تكف عن ثورتها:

– من يعقل أن تأتي النساء من الهند، بزيهن الهندي ويعشن في بلادنا، حتى الأفارقة أتوا بهم من قبائل الفلاشا، هم يقيموا ونحن نقتلع من بيوتنا؟! تسقط أسماءنا.. وأسماء بلداتنا وشوارعنا؟! ما القادم إلينا يا أبو محمد؟

(٥٠)

سكن القلق حوائط بيتهم، لم تهدأ الأنفاس إلا بدخوله الدار، تحرك الجميع متحلقين حوله، إقتربت ربيحة منه والقلق وقد فتت كيانها:

- قل لي يا أبو محمد ما وراءك من أخبار؟

- كان الانتظار في ساحة مسيجة خالية من المقاعد، يتعامد قرص الشمس عليها، الورقة في يدي تطلب حضوري الساعة السابعة صباحا، لم أكن الوحيد بين الوقوف، شيوخ ورجال، الشيخ خارت قواه، جلس القرفصاء، يفترش رمل الأرض، نهره المجند، يعيده واقفا، كنا نريح أقدامنا، قدم وقدم، والشمس تأكل جلودنا، ونحن ممنوعون عن التحرك صوب أي اتجاه، سوى الإنتظار، بت لا أذكر اسمي، كدته ناداني من وقت ولم انتبه، اختلطت الأسماء في ذاكرتي، صار أبو محمد يساوي ناصر، وأبو وليد يساوي طلال، جميعنا في قفص واحد، يلهبنا الانتظار، الساعة الرابعة عصرا، إقترب مني المجند، ينهرني متهكماً:

- إنت يا حبيبي، ألا تسمع؟

دخلت على "أمنون" كان خلف مكتبه يتظاهر بعدم الانتباه لحضوري، كان التجاهل من البداية، تقليب الأوراق، وإزاحة الملفات والتدقيق في عناوينها، وكأني لم أدخل الحجرة، ساد سكوناً ثقيلاً، يفح بالمؤامرة، بثتها رائحة المكان، لحظات ونهض متجهاً لباب الغرفة، وأنا جالس أتأمل مسطح مكتبه، علبة دخانه، غطائها مفتوح، كان قد سحب منها لفافة أو اثنتين، مددت يدي والتقطها بسرعة، دسستها في جيبي.

شهقت حنين، تهمس لأختها:

- أبي يفعل كل هذا؟! ويأخذ علبة الدخان، و يحكي لنا هكذا ببساطة !!

قطعت أفكارها أمها ربيحة، تستحثه أن يكمل حديثة، لم تسترح الهواجس حتى عاد مسترسلا في حديثة:

- لحظات وعاد آخذا مكانه خلف مكتبه، بنظرة خاطفة، بدأ يتفقد علبة دخانه، يرفع الأوراق، ومحفظة الأقلام، ثقابة الورق، لم يعد لها أي أثر، يحدجني بنظرة حادة، يتهيأ لمادة الاتهام، لون وجهه تحول لصفرة مدقعة، تتخللها حمرة الغضب، تبدو متفجرة من مسامات جلده، عاجلته بالسؤال:

- عما تبحث؟

- علبة دخاني يا رجل؟!

- ما شعورك بفقدها؟

تهدج صوته، وخرج مرتعشا غاضباً:

- ماذا؟!

خبط على مسطح المكتب، وكف يده وقد نفرت عروقها..أخرجت علبة دخانه، وألقيت بها على مكتبه، استقرت هادئة أمامه، خاطبته بلغة العارف:

– كنت أود أن أخلق فيك بعضا من مشاعر الفقد، فكنت كما أنت أمامي الآن، أما الوطن يا سـيدي القائـد، فكيف تتصور أن تعيش عليه كل يوم وساعة، ونحن نفقد منه كل يوم وكل ساعة.

لم يجد ما يقوله لي، رفع علبة الدخان وأخرج منها لفافة يقدمها لي، قلت له:

– لا أشربها.

هدأ قليلاً عن ارتباك لم يستطع أن يواريه عني، بلغة هامسة لا تصل لأبعد ما بيني وبينه قال:

– هل تقبل صداقتي؟

كانت إجابتي أسرع من طلقة رصاص:

– كيف وأنا لا يلف خاصرتي حزام البندقية، كما أنت؟! كيف تتكافأ تلك الصداقة، أنا لست في مكانك، وأنت لن تكون مكاني، فهل يستقيم أنا الأعزل من السلاح وأنت المتحصن به؟!

حكاية أبوها أخذتها لواقع يقطر بالدمع، ولكن حين يحن الدمع كثيرا لا نعرف لماذا جاء البكاء.

(٥١)

ترسم حنين من خيالها ملامحاً لوجوه لم تقابلها، تتعثر بها على مسطح صفحات تقلب فيها بحثا عن عين الحقيقة.

"دان عومر" ينشد حكايته.. أنا كالبيت المهجور، تصفر بين أحلامي رصاصات الحرب، يبدو لي العالم كأعشاب برية، تنمو حول بيت مهجور، هو حياتي.

هو يعيش حياة مهجورة، تصفر فيها رصاصات البنادق، كيف يشكو فقد البيت وقد ملك أركانه وحوائطه، بوابات وحدائق؟! هل يعاني من فقد بيت في بلاد بعيدة؟ وارسو، موسكو، المغرب؟

و"صوفا روتام" في مرثيتها التي لا تشم فيها إلا رائحة القبور: "يستلقي الفتى، ينتظر من يأتي ليسد فتحات أنفه، وأحجار صغيرة على عيونه".. "حييم جوري" ينشر شعره.. وهاهي جثثنا ملقاة.. "يزمئير دامي".. ليس هناك في الحياة ما هو أغلى من جثة هذا الفتى.. صرخة دامي تقول "بتفاهات أفواهكم نموت".. على طول المدى تنشد حنين ضوءاً.. خيط من شعاع، يحملها لأنحاء الأرض، تسأل:

– من أين تأتي تلك الأصوات؟ وما هذه الملامح التي تتجسد أمامي على ورق أصفر، ينداح لشحوب مدقع، يستقر على جلدها إنها المرة الأولى التي تلتقي بهم، لقاء مريباً، تغلفه الرهبة وهي الحاملة لمشعل الحقيقة، هل تلقيه في وجوههم؟ أم تستحث خطاها في ذلك النفق السحيق وتشاهد وتقرأ ما قد لا يتصوره عقلها؟

"حانوخ ليفن" في مسرحيته الغنائية.. أنا وأنت والحرب القادمة في مشهد الوداع، أخذه قطار الحرب، وظلت هي على رصيف المحطة، يصفر صوته في أذنها: "عاهديني أن تنسي".

جدة حنين يوم بكت، لم يعد يوسي، كان يمر بها كل يوم يهديها وردة بيضاء، وهو غارق في زيه العسكري، كان الموت في مواجهة الآخيار، وهذا ما يجعله أكثر جاذبية، ربيحة تلوم أمها على هذا البكاء، في حدة لا تلوي عنها أبداً:

– كيف تبكين يهودياً ذهب للقتال، يميت أبناء لنا، أين عقلك يا أمي؟

تخنقها عبرات تغرق وجهها:

– كان يهديني كل يوم وردة.. لا يمر بهذا الطريق إلا ويترجل من حافلته، يقدمها لي، واليوم رحل، ولن يعود ثانية.

جدة حنين نسيت يوسي المقاتل، ولا تذكر منه إلا الإنسان فيه.

"حانوخ ليفن" يحدث شرخاً، بل أخدوداً في مجتمعه بعد مسرحيته ، ملكة الحمام.

ملكة الحمام وقضايا موجعة مثل فقدان الأبناء في الحروب، تمس البقرة المقدسة، والواقع الإسرائيلي، تكشف الأقنعة عن الوجوه.

"حانوخ ليفن" هو الفأر الذي زأر: "أستطيع أن أقول لا توقعوا الأذى بالعربي ،فهناك الكثير من الأقداح المتسخة في المطبخ".

ملكة الحمام كانت الزوجة فيها "جولدا مائير" إبن العم هو العربي، الحمام الأرض المحتلة، "ليفن" يقفز على مسرحه لعقول المتفرجين، رحيل، تسأل آبي:

– هل صحيح ما قالته الجارة، أنك وصفت حائط المبكى بأنه مجرد حائط؟

القفز عن كل الرموز، الفكر، والثقافة الصهيونية، ليقفز بلفور، وزرادشت، وجراتس، وآحاد هعام.. يوسي الذي بكته جدتها، هو ذاته يوسي في مسرحية "إقفـز"

– أريد جدراناً من حولي، أرضاً لي، تربة صلبة تحت أقدامي، سئمت التسكع، أريد هنا أرضاً وبيتاً.

يوسي رأى نور الشمس من برجن "النرويج" ورحل إلى باريس، أمستردام، لندن، يلتقط أنفاسه، ويحوط حوله سياج وجدار شاهق، من إيلات، تل أبيب.

حنين ترى الشمس من تلال ورمال غزة، جبل عاصور باتجاه الخليل، حوض نهر روبين من وادي الصرار، سفوح شرقية تصرف مياه الأرض إلى وادي النار، ترقب خيط الشمس على بيوت تبنيها من الرمال، على خيط الشمس يكبر البيت وعلى خيطها تذيبه.

يتحدث رجال الأدب منهم، تقرأ في مقاطع مترامية، تلمها على راحة يدها "اللصوص منا، الغانيات منا، التجار منا".

"آبي" يريد شرفة كبيرة، مفتوحة ومستديرة ككل العالم.

"يوسي" لن أتزحزح من هنا، إني انتمي إلى هنا، أريد ان أضرب الجذور في أعماق الأرض، الشمس تشرق هنا فقط، البحر هنا أزرق، وهو هنا أزرق لي، شمس، نور، وبحر، هنا كل شيء لي، هناك كل شيء غريب.

تغيب شمس "يوسي" بعد أن قدم وردة بيضاء، تحرق جبينه شمس سيناء، تذيبه، تحيله لكتلة من لهب، يبتلعها بحر غزة.. وهو الذي قال: " شمس هنا.. وبحر أزرق لي".

"آبي" لست يهودياً باختياري، كنت أرغب في الوقوف على القناة، وتمتد أمامي وسائل الدمار والإبادة، من النيل إلى الفرات، من ميدان الثورة في القاهرة إلى ميدان ملوك إسرائيل في تل أبيب.

من مشهد الشطرنج، يموت كل الجنود على رقعتها، يبقى الملك والملكة، يلعب الملك مع الملكة:

– ولدي لن يقوم مرة أخرى، سيظل نائما إلى الأبد، ولدي الذي في حضني هو الآن في السحاب.

يظل السؤال يتخبط في قاع الجمجمة، كلما عاث الدمار واستوت البيوت بالأرض، وارتقت النسوة حطام بيوتهن، وصار الرجال يشخصون لآخر مدى من المعمورة، تجوب راشيل شوارع المدينة، تجر أسلاكا لعدسات التصوير، تتصيد الرجال على مفارق الطرقات، تسألهم:

– هل تفكر في الهجرة؟

تنثر الإجابات أناشيد من تاريخ كنعان القديمة، ترسم على وجوههم المكدودة:

– إلى أين أذهب؟!

يلتفت لوديان سحيقة، وقمم شامخة، ونغمات تتقافز على شدو العصافير

– هذه أرضي، من يقبلني في بقاع الدنيا؟ لا خيار لي.. سأبقى هنا.

وتقوم الدنيا، تتخبط بالتضاد كل المفاهيم، يظهر "ليفي" يعلن اعتذاره بكلمات لا تنسى: "أعتذر فـــأمي لـــم تحسن تربيتي".

(٥٢)

هل يكون صديق "يوسي" هو من يقود دبابة تدق الأرض على بوابة "بيت حانون"؟!

قسمات وجهه بعيدة، نصف جسده تبتلعه مجنزرة يحتمي بها من ضربات قد تكون قادمة، مجنزرة "يوسي" كتب عليها قتالا أحاديا، لم تقابلها مجنزرة تشابهها تحمل علما مغايرا، وتريد الفتك بها، من فوهة زرعت في مقدمتها، قرصها يدور من مكبس يضغط عليه بإصبعه وبشدة، يضغط وكأنه أحكم قبضته على العالم، يضغط فقد يكون الموت جماعيا، صديق "يوسي" يطل برأسه من فتحته المنتصف، يرى عالم "بيت حانون" أشجار الخروع تعيق تقدمه، داليات العنب تحتل مساحات من زجاج كاشف، تستقر على بقايا أحجار مهدمة، يغوص جسده مرة أخرى، من المؤكد أن لديه مجموعة من الأصدقاء، قدموا مثله في مهمة واحدة.

دوى صفير من أفواه الصغار، يقف الصبي بعيدا، صديق يوسي يتحفز لهم من خلف الكاشف الزجاجي، يدقق في الأمكنة، يشير له الصبي، رافعا زجاجة مياه فارغة، يلوح بها في فضاء قائظ، يطلب ماء.

على مساحة خالية، هي الخط الفاصل بين جسد الصغير وكيان مجنزرة عملاقة بداخلها مدينة لا ينقصها شيء، تأخذه المجنزرة إلى جوفها مرة أخرى، والصبي على وقفته وخلفه رفاقا له، ينتظرون، يظهر صديق يوسي، يلقي إليهم بزجاجة مياه، تتدحرج على مساحة فاصلة ما بينه وبينهم، تلتقطها أيدي الصغار، والمجنزرة على وقفتها، بقرص لا يتوقف عن الدوران، وعين صديق يوسي ترقب كل حركة من الأحراش البعيدة. صديق "يوسي" وقد ألقى بزجاجة الماء، هل يرفض داخله أن يترك الصغار يتسولون قطرة ماء؟! نعم، فمعادلة القتل قائمة، ومعادلة الحياة مع الآخر قائمة.

"يوسي" الشمس تشرق هناك، البحر هنا أزرق لي.

يقبع السؤال في حدقة عين لا تسدل أهدابها:

– عن ماذا يبحث صديق يوسي عن أطراف بيت حانون؟!

عن شمس تشرق هناك.. أم عن بحر أزرق يكون له.

(٥٣)

لم تتوقع حنين يوم حدثها الفخراني أنه يعرف حكاية كتاب بلون الزيتون، قال لها:

– قابلت "كراوية" بالأمس، وشكوى يبثها لي بأن لي تأثير عليك، فقلت له، في الأدب فقط، لكنه أصر أن أكون وسيطا ما بينك وبينه، وكم عجبت لكتاب يطلب فيه ألف ورقة نقدية!!

طار صوابها من فرط دهشتها:

– هل قال لك؟! وأنا التي كنت حريصة بأن لا أفضي بما أحزن قلبي، كتاب التقطه من على بسطة الكتب القديمة وبقايا مكتبات مهجورة أو موروثة، قد يكون وصل ليده بورقة نقدية واحدة، أو تائهاً بين بقايا كتب، لماذا يختارني أنا ويبيع لي القدس؟!

كنت سأعيده له، عشت الأزمة، رفض نصير وقال:

– لا، هو لك، وأي مبلغ ستدفعينه سيرضي كراوية، غدا سيبيعنا في سلال، ويلقي بنا في مزاد، لا ترديه إليه.

زارتني صديقتي نور، فحالت بيني وبين أن أعيده، أمضينا ليلة طويلة نقرأ ونفسر كلمات بالإنجليزية، كتاب بلون الزيتون، لا يتجاوز حجمه كف اليد، ويدخل مزاد البيع والشراء!!

أمام رفض الفخراني لمحاولات كراوية، بين كر وفر، قال لها:

– صوري أوراق الكتاب، وأعيديه إليه.

لا تعرف حنين ما الرابطة الغريبة التي باتت فيها، هي والكتاب؟! لماذا ترفض إعادته، وتمقت مزاد البيع، كل ما كان منها أن انتشلته من وسط صف من الكتب، يستلقي على راحتها، تتأمله والحزن دمعات تتناثر على قلبها، تمرر راحتها عليه، تمسح غلافه اللامع، تستعيد ملمس قديم، تقلب الصفحات، وحروف بالإنجليزية مرسومة، صور تتأمل فيها، خرائط تتبع خطوطها المتعرجة، أورشاليم "الإله شالم إله السلام لدى كنعان"، يبوس من بطون العرب الأوائل، ونطقها المصريون "يابتي" انتصار صليبي، وبهجة النصر، مذبحة في ساحة الحرم، والأقصى مقر لفرسانهم.

ورجل يلتحف بلاط الكنيسة، يتدثر بدفء ينشده بين جدرانها، طرق طويلة ملتفة، جميعها تصل القدس وأبوابها السبع.

النساء يفترشن الأرض المبلطة بحجار صخرية ملساء، وشيخ على الطريق، يتكئ بعكازه، فترنو العيون نحوه.

وامرأة تتشح بشال أبيض، أسدل عن كتفها، تقبض على جرة ماء، تمضي على طريق سور القدس إلى المدينة القديمة.. صوت الفخراني يطن في أذنها:

– لا تنقديه الثمن.

في مساحة خضراء ما بين الغربة والوطن، يحدثها "أحمد فراج" من بين كلماته شفرة تحاول أن تفك رموزها، قد يكون مشفقاً على حالها، يتلقفها على طرقات موجعة، ما بين صعود وهبوط وارتطامات، قدم لها دعوة لمدينة غافية على أطراف الصحراء المصرية "برج العرب".

كان أول من صعد للحافلة، يتبعها بعينيه، يؤكد لنفسه أنه يقدم لها ما يفرح قلبها، "عبد الفتاح مرسي" في المقعد الخلفي، بنظرة عينيه الممسكتان على خيط أمل لا ينقطع أبدا، تحييه بابتسامة، بادرها بالحوار:

– حنين من المؤكد أنك ستكتبين قصة عن هذه الرحلة، فأنت صاحبة عين لاقطة، ولن تضيع سدى فرصة ذهابك لبرج العرب، أتمنى أن أقرأ أفكارك وأنت على الطريق إليها.

أربكتها كلماته، فبدت بملامح هاربة من ابتسامة حزينة، تحاول الانفلات منها، التفتت إليه قائلة:

– هنا أحسب المسافة إلى الوطن، فوجدتني أتجه إلى طريق معاكس، تبتعد بي المسافات لأقترب من الحدود الليبية، مرسى مطروح، السلوم ،طرقات تزيدني غربة وبعداً.

ساد صمت، وصار الأمل مراوغاً، يشع ويتوارى نوره في عين عبد الفتاح مرسي، تسأل أحمد فراج: هل ستذهب لمؤتمر الأدباء في العريش؟

– صدقيني يا حنين كنت أتمنى أن أكون معهم، ولكن كم من المسئوليات لا حد لها، اذهبي أنت، سأكتب اسمك لترافقيهم هناك.

اجتاحتها عاصفة من جليد الشمال، ودفء من أرض الجنوب، هبت تقاطعه:

– لا تسجل اسمي في مؤتمر العريش، لا تلقي بي هناك، على معبر رفح الحدودي، وأنا الممنوعة من الدخول.. لا تشعل النار في عيدان جفت على الغربة فأذوي رماداً.

في مساحة خضراء ما بين الغربة والوطن، انداحت نحوه هوة الصمت، أشعل عود ثقاب، ينفث بقايا من دخانه في فضاء برج العرب، ويده الأخرى وقد أطبقت على علبة دخانه الفارغة، يلقي بها من نافذة الحافلة، التفتَ نحوها وقد تفجرت حمرة على مساحة وجهه:

– لن أسجل اسمك يا حنين.

(٥٤)

"ماجد شلا" يكتب لحنين عن شبابيك من غزة:

- شباكنا قديم.. قديم.. دوائره الحديدية لا تنس راحة يدي الصغيرة، كثير ما تشبثت بهـا، وحـين يتـسلل الملل إلى قلبي، كنت أداعبها بأطراف أناملي.. ودوائر أخرى تنطوي على نفسها استحياء، فتـصير فتحـات ملتوية لا تحكم استدارتها.. شباكنا القديم يداعبني.. يأخذني من فتحته إلى براح الأرض، ترنو عيني لمـيلاد الأخضر، وكيف يزف إليها، تشرئب السيقان، تزهو بأوراقها، تفاخر بها ببهاء في فضاء مدينتنا "غزة". مـن فتحة شباك، يقابلني سور ضار في أعماق الأرض، سور قديم قديم، ينبجس الأخضر من شقوقه، تتدلى منها نباتات تقبل أحجاره.. وأنا من خلف شباك قديم، أتشبث بدوائر حديدية، صاحبتني في سـنوات وليـدة مـن حياتي.

* * * * *

من رحم الأرض يولد الأخضر، تجدل أوراقه حكايات من أثير، تسكن براح فتحته شباك قديم.

أحفظ شبابيك بيتنا القديم، من الطرف المقابل قواطعه حديدية، مجدولة طولاً وعرضاً. ضفائر شـباكنا مـن حديد، طوقتها جنازير، تكبل ضفائر من حديد، ناعمة ملساء، من راحات أيدينا، تركنا عليها مـن مـسامات جلودنا.. من أحلامنا.. من ذاكرتنا.. جميعها يطوقها جنزير من حديد.

(٥٥)

"**جلعاد شاليط**" لا ينطق إلا العبرية، يكتب يومياته، ورسائل يطيرها لأهله من محبسه، له أم وأب، وأخت صغيرة، تفرد ضفائرها على نافذة قديمة، تشبه شبابيك من غزة، تناشد الليل أن يعيد أخيها إليها، يعيده نهارا جديدا، تسقط دمعات الصغيرة، لوحشة تنهش قلبها، على حال الأسير في مدينة ملقاة على كومة من رمال.

أخت "جلعاد" لم يدركها الوقت، ولم تعرف معنى بوابات بعيدة، كتب عليها ممنوع الدخول، ولا ممرات آمنة سكنها الخوف والفجيعة، ولا كاشفات الظلام، وكيف تحيله إلى نهار.

عين الصغيرة لها دمعات تقبل جبين الليل، تتوسل إليه أن يعيد الفرح إليهم.

مضى "جلعاد" صار بيته حياة، تمرح على حوائطه الصور، صور جامدة لا تبارح مكانها.

عين الصغيرة لا تتحول عن صور تشدها قرباً، وتلقي بها بعداً، تحادثه، تعاتبه، تلاحقها عيناه، ولا تبرحا مساحة برواز الصور، تسال أمها بنبرة حزينة:

– متى سيعود أخي؟

صار الجواب صمتا، ينوح على كل المطارح. تضمها جدتها العجوز، تبكي بعين الحسرة، من عتاب مر، تهمس لفضاء حجرته الساكن "يولد الأبناء على هذه الأرض غرباء، تلتهمهم، وتحصد عظامهم، تتوارى ذكراهم مع الوقت، وكأنهم لم يكونوا".

* * * * *

ماجد يرسل وطنا من صور، وجلعاد كيان من صور يعيش على الجدران، عين أخته تمرح على براويز معلقة.

صورة له معلقة بزيه العسكري، وأخرى مع رفاق له، وثالثة يلف ذراعيه محتضنا أمه وأبيه، حبيبة له، ونظرة على المدى، لا حد لها. كان يرى أسرته هناك، على تلال من رمال غزة؟!

* * * * *

بالأمس صرخ جلعاد بأعلى صوته، يلتقط أنفاسه، يحتله الهدوء ليروي لنا، أنه إنسان يحب الحياة، يحب أسرته، يريد العودة لدفء أنفاسهم، من حنجرة ذاوية يسأل في فراغ مجهول:

– من يدفع لأجلي؟ أنا جلعاد المنسي، أنا من نفذ الأوامر، والتحق بالجيش، لم أنساكم ونسيتموني، هنا رأيت الأمهات، وكيف يذرفون الدمع على الغائبين، وأنا لي أم أراها بدمعات لا تستطيع يدي أن تمسح خدها المبلل بالعذاب، كيف صارت أختي الآن، وأنا المنسي من زمن بعيد؟ من يدفع لأجلي؟ من يعيدني؟

(٥٦)

عدسة التصوير يحملها "ماجد شلا"، يرسم لحنين وطناً من صور، عين الجنود ترصد خطواته، حالوا بينه وبين الوصول لساحة الحرم.

عاد بصورة واحدة سرقتها عين آلة التصوير، من خلف فوهات بنادقهم وأحذيتهم الثقيلة، التي لا يسمعون صدى لوقعها على أرض مدينتها.

على شاشة الحاسوب، تقذف كرة الأرض بالصورة، في صندوق على أطراف الدنيا، يخرج من رحمها وطن من صور، يكتب لها:

- "حزينة أنت يا قدس".

رأتها كما رآها ماجد.. يزفر صدرها بأنفاس موجعة، تصيبها تنهيدة من ألم:

"حزينة أنت يا قدس"

شبابيك موصدة، أبوابك حالت ما بين الوصول إليها قواطع من حديد، وأقفال لا تفتحها مفاتيح المدينة.

"حزينة أنت يا قدس"

تفرق الأصحاب، وتجمع أناس لا تسمع أحجارك حكاياتهم، ولا تفهم لغتهم، البسطة الخشبية لم يتبق عليها شيء يباع، ولا عابرون يشترون.

"حزينة أنت يا قدس"

مسجد وقبة ذهبية.. مسجد باحته متوجة بأقواس رخامية، ساحاته من بلاط قد من صخر أملس.. وفوهة سكنها الظلام، فتخرج قبته بالنور.

من فوهة مظلمة تنبعث حياة العصافير، تخبىء أعشاشها بين ثنايا الأغصان، تمضي لرحلتها وتعود.

من فوهة مظلمة تنام الشبابيك على حكايات مشرعة، تنداح وهجا، تظهر درجات القدس، وشيخ يجاهد للصعود، وقد قارب للوصول لآخر درجة تأخذه داخل المسجد.

من فوهة مظلمة، يفتح الصبي كتابه، يقطع الظلمة بخيط النور.

عدسة ماجد خبأت صورة القبة الذهبية، فتوهجت على شاشة الحاسوب.. الأرض لم تعد تدور، تهجع على مشهد الشمس، تغزل خيوطها من قبة ذهبية.

* * * * *

ماجد هذا الصباح يرسل صورا لمراكب الصيادين في بحر غزة.. قناديلهم لم يلمسها شعاع، مراكبهم لونتها خيوط الشفق، الأخضر يلامس الأزرق، الأصفر يغرق في الأزرق، مراكبهم تشق العتمة، فينكشف لها النور، شباكهم تنام في قاع المالح، تلامسها أسماك لا تزال صغيرة، تمر بين فتحاتها، على حدود آمنة، تخطف عيون من مخلوقات البحر، لم تصلها يد عابثة.

على الصمت، تنفرد الأشرعة، تشق صفحة الماء، تضم جناحيها، تستقبل الضوء، فتتراقص له ظلال مراكبهم.. يظل ماجد يلهث وراء عين عدسته، قد يفرح قلب حنين، ويكتمل لها وطن من صور.

(٥٧)

يكتب لها رجل الجنوب:

"صوتك يا حنين يحمل ألحانا وعبير، وقلبي يحمل آلاما كثيرة.. دقاته تبوح بآهات وجـراح، وأنـا أحاول أن ألتحف ألف براح للبهجة، لكن.. كلما فرت من القلب بسمة، مزقها سيف النواح".

تستلقي باكية على حروف كلماته، تقلب في صفحات الحكاية، تتعرف على خطها وقـد كتبـت فـي أعلـى الصفحة "اضطررت أن أحضر هنا.. هذه أرضي، ولكني لا أشعر أنني جزء منها، الكل هنا غريب".

حكايات لروّس قادمون، مهاجرون مرتزقة، بعد وصولهم تجدهم جالسين على حقائب السفر، وحقائب سـفر على معبر رفح لا يبارحها أصحابها، تنظر لسواعد تنهضها وتدخل بها مدينتهم، حقائـب لا تفـتح إلا فـي ربوع الوطن، وأخرى تظل مسافرة، قد تصل لبلاد أرصفتها من ذهب، وشوارعها من فضة.

على معبر رفح، تنفذ أنفاس، تغادر أجساداً لا تبارح الانتظار، حتى وإن بقي لها حق مراسم الدفن.

"أبو جبر" ورنة صوت مذبوحة على خط حدودي، يريد الوصول لأرضه، ترنو العين مـن خلـف الحـدود، رؤوس أشجار الزيتون، وكيف تراقصها الريح، فتزغرد لها، والجسد لا يستطيع العبور المدى يعبر عن كـل الحواجز، وتظل الأجساد سجينة خلف بوابات "قف ممنوع الدخول".

حنين وسواد شعرها ينداح لوهج من فضة ،تهدهد أحزانها قائلة:

– البياض يجتاحني، ندف من غيمات على مساحة روحي.. كيف تحول حالي؟! هل من كثرة مـا عرفـت؟ ومن حقائق تنهال على ذاكرتي، ولكن لابد من النهوض لأتأهب لصبح جديد، قد يحمل لي بهجة الحياة.

"المسيري" وهجرات اليهود السوفيت، حنين ونساء بغايا، يفدون على مدينتها، حقائـب لا تفـتح إلا علـى أوراق المساومة "ماذا ستقدموا لنا؟" وحقائب دامعة لا تبارح مكانها على منفـذ رفـح، منهـا مـن رحـل صاحبها، والتحف التراب، بجوار آخر نقطة حدودية، لا يسال، لا يساوم، فقط يريد حافلة، تلقي به لتلال من رمال صفراء.

هل تخطئ عين حنين عيون على أطراف الوطن، وقد غادرها بريق النور، لا تكف ترنو بعين خاويـة إلـى وطن خلف بوابات موصدة، وطن يتحسسوه بقلوبهم، بأطياف أرواحهم، نسمة تدلهم على شـماله وجنوبـه، تعيد إليهم إرادة البقاء، وإن كان بعين غادرها النور.

* * * * *

"جان بول سارتر" هل حيره اليهودي، فخرج لنا بتلك المقولة:

– هو من يعتبره الآخرون كذلك.

هل للآخرين أن يعتبروا حنين يهودية وتعود لمدينتها في مثلث الاستيطان، اسدود جنوبا، القـدس شـرقا، وتحط بين نتانيا وحيفا شمالاً.

ولن تكون مثل "أناتولي ألتمان" سجين صهيون الشهير، وتبكي الحسرة، كما فعل، وأعلن اسـتجداءه لكـل عابر سبيل، كيف يأتي ويقدم له وطنا كهذا، حجرة قذرة، وحوائط مهدمة.

حنين لن تشكو لأحد.. ستقبل بالتراب وبالأرض حتى وإن لفها بيت من صفيح.

(٥٨)

قواقع "تيبا" تضع بيضها، تتكاثر، تتسلق السيقان، تتشبث، تحبو على مسطح أوراق الشجر، توجد لها مكانا، تصيبها الشراهة، تلتهم ما يحوطها من أوراق وبراعم.

هم يشبهونها، صورتهم تكبر في عين حنين، لحظة كانت المرآتان تجمعان القواقع لمركز البحوث، للكشف عن دواء يوقف زحفها، الخراب يزحف للأخضر، يموت وتظل الصور دون ألوانها، تبقى مدينتها زرع يابس، يتكسر، يلتهم من قواقع "تيبا".

(٥٩)

د."**عبد الوهاب المسيري**" أصابه الغثيان، تنهش خلايا دمه "تيبا" فلا تبق شيئاً.

من الموسوعة اليهود والصهيونية، اكتشف ما يشبه قواقع "تيبا" في دمه، تآكل النخاع في جسده، يعيش على مصل أمريكي، على آخر دولار في جيبه، المسيري يقاوم، يود لو يبق، لو برهة من زمن، ليكمل لنا قصة اللوبي الصهيوني، الموت يراوغ جسده الواهن، يلقي له بفكرة الحوار معهم.

هل هو الموت المحقق؟ وهل بات لا يعرف عقود حياته الماضية، ما كان إلا محاورا من على الضفة الأخرى من القناة.

لم يجف مداد قلمه، بل هي تيبا التي تلتهم خلايا جسده، وبدأت من النخاع.

رحمة بنفسك يا صديق، فأنت من صنع لغة الحوار، وكشف كم من الحقائق الغائبة في دهاليز النسيان، أمام فوهات البنادق.

لا تنظر الوقت، فلتدعه يمضي إليك، وتهيأ له.

لا تنظر للفتة من ملك الملوك، وحفنة من دولارات، ستنهشها "تيبا" من دمك، ولا تراوغ على الرحيل، فأنت أمير الحوار، متوج بكل ما كتبته، وسيبقى لوردة.. حنين.. أبو جبر.. الفخراني.. أبو محمد، ربيحة.

لن ينسوا مشوار قست مسافاته من هجرة اليهود الخزر، وسقوط دولتهم، يهود اليديشية، يهود السوفيت، وبولندا، ومد هجرات إلى فلسطين، قد يقف بك الطريق عند الأشعار الرومانتيكية الإنجليزية.

(٦٠)

دق جرس يطلبها، استلقت حنجرتها على راحة الغياب، تنهض من غفوتها، معانقة لصوته المسافر، لم تصدق ان لهفتها عليه وكل قلقها يختزل في تلك اللحظة.

كان رفيقها في رحلتها الأخيرة هناك، وقف بباب دارها، يحملها في سيارته، يطير بها عبر شوارع مدينة لا تتجاوز مساحتها، المائة وخمسون ميلا ،في مساء بلون النهار، أخذها لمخيم "الشاطئ".

قال لها:

- مع نهاية كل نهار أطوف بشوارعه.

يرفض أن يسقط المخيم من مساحة ذاكرته، لا تعرف أي سر يسكن قلبه، لحظة أخذها إلى سوق "فراس"؟!

هل رآها يوما هناك، تنتقي من الملابس القديمة وتحبها، تلتقط الأحذية المتيبسة على عتبات المحلات الواطئة، تجاهد أن تدس قدمها الصغيرة فيها، قد تجد مقاساً لها.

في مساء كان بلون النهار، على أبواب ودكاكين موصدة، عيون أقفالها لا تسدل أهدابها.. عيون لا تنام.

رأتها دكاكين "فراس" بجواره، وصور قديمة لن تغيب ملامحها، بشغف قلب يمتطي الغياب، تسأله:

- أين أنت الآن؟

- في دير البلح

- دير البلح !! سمعت هذا الصباح أنها مقتحمة من الجيش.

- وغزة مقتحمة، من كل نافذة وبيت وساحة، الفزع سكن عيون الصغار، أحاول أن أخفف عنهم، أتحايل لأجل ابتسامة أهديها لهم.. الصغير أخذني لفراغ لا حدود له، حملته ومضيت به، من غزة إلى دير البلح.

عز الدين يغادر غزة.. خان يونس.. دير البلح.. رفح.. صار أشد قربا إلى سيناء.

(٦١)

من بين أجساد الصغار، وانهماكها في أمور بيتها، تثور الأحاديث، تغزل خيوطها، تعقد خيوط، وتفك خيوط، تأخذ ركنا في صدر الدار، تمر الأحاديث على مسامع الصغار، حديثها ممزوج بالقلق حينا، والهدوء حينا، تتحين فرصة للدخول مع زوجها في عمق الأحداث، تقص عليه:

– سمعته بالأمس يحكي عبر المذياع، أقسم لك يا أبو محمد، قال سيناء تجهز لأجلنا لهجرة ثالثة.

يجيبها من صمته المحير:

– هل تظنين أن هذا الرجل يرى المستقبل بعين مجهرية؟ هل يرانا الآن نقترب نحو سيناء.

تحفزت لإجابة حاضرة في ذهنها:

– إنه هيكل.. وأنا لا أغفل عن أي شيء يتحدث عنه أو يكتبه.. هون عليك يا ربيحة، الله يلطف بحالنا، لو صح كلام الرجل، وعرف ما لا نعرفه، تكون الفجيعة بعينها.

* * * * *

حنين لا تنس هيكل وحكايات من أمها ربيحة، وهجرة ثالثة إلى سيناء تلك الصحراء العجيبة، التي ابتلعت رجالنا دون شواهد قبور تدلنا عليهم، سيناء وشمس لا تغيب عن صحراءها.. تاريخ لا تمحوه رمالها، حملت الأقدام العابرة إليها، تدحر هجمات، وتصد رجال.

عين لها مفتوحة بعمر الأبد على فلسطين.

هل تكون الوطن البديل؟ الوطن الأخير؟

وطن يشهد ميلاد الأطفال، أطفال جدد تسمع صحراؤها صرخات الحياة فيهم، يكبرون، تلفحهم شمسها، يحكون لأحفادهم أنهم ولدوا على أرض سيناء، أرض الجدود، التي لم يروا غيرها، وتعود فلسطين بعيدة، بعد الشمس عن القمر، ولا يرى القمر منها إلا انعكاسات ضوء، ستظل سيناء ضوء، يأخذ نوره من شمس فلسطين، وتخلق مسافات بحساباتهم هم.. مسافات بعيدة.. بعيدة.

(٦٢)

هيكل صافحت يده كف حنين، قالت له:

- صبيتي تنتظرك كل مساء، تتابع حديثك وتقرأ التاريخ من صفحات ترويها عبر الشاشة الفضية.

بابتسامة ممزوجة بالألم، تأمل وجهها قائلاً:

- لا أريد لقلب الصغيرة أن يحزن، ما أكتبه وأسرده ثقيل على روح لم تغادر الطفولة.

- هي تعرف مواعيدك، وتصر على سماعك، تناديني لأشاركها وقت أنت معنا فيه، وتحزن لحظة تعلن النهاية.

ينته اللقاء على ذات الابتسامة، تمد يدها مصافحة لموعد بعيد، يأخذها الطريق الملتوي من شاطئ البحر، وذكريات مع أمها، وحكايات مع أبيها، سيناء وهيكل وهجرة ثالثة.

* * * * *

في هذا اليوم الجمعة ٢٠٠٧/٦/٢٩ تنعقد جلسة أمام الشاشة الفضية، في حوار مع هيكل، تسمع منه ذات الكلمات التي قالتها أمها ربيحة منذ أكثر من ثلاث عقود مروا:

- ستدفع مصر.. وسيدفع الأردن وسوريا، كل منا سيدفع الثمن.

مصر وسيناء الحل البديل لتصفية قضية، اسمها "فلسطين"، بلير رجل "بريطانيا" يتأهب لجولة جديدة، "شارون" كان يحمل مشروعه، ومنه كان الجدار، ونحن قابلنا الجدار بالصمت، يعود "باراك" يبقى "أولمرت".

أبطال اللعبة على أهبة الاستعداد لتوزيع الأدوار، واسم المسرحية "تصفية قضية" لا فلسطين بعد اليوم.

* * * * *

يكتب لها عز الدين من هناك:

- لا منتصر ولا مهزوم، نحن نمر بفاجعة لا تقل نتائجها عن نكبة ضياع فلسطين، وغياب عن أجندة التاريخ لوقت غير معلوم، وهذا ما يجعل الأمر أكبر من تناحر فصيلين أو أكثر، وأكبر مما يعتقد البعض، إنه فساد أو حتى خيانة.

صديقتي التي تسكن في قاع الذاكرة ،فلسطين باتت في أيدي التجار والسماسرة، المغامرين والمقامرين، لم تعد لأبنائها الذين انشغلوا بالدم فقط، ولم يكونوا يوما من هواة الدم، ولا من هواة القتل.

غادر عز الدين غزة، صار الأشد قربا لسيناء، خان يونس، دير البلح، رفح، هل رأى عز الدين ما رآه هيكل؟ هل سيكون لحنين بيت في سيناء؟ وسور وجيران؟ هل ستحفظ شارع بيتها الجديد؟ يأخذها التيه بعد عبور القناة.

والحنين إلى موطن الذكريات، وأين تبحث عنها؟ في صحراء سيناء، أم على مسرح الألعاب، "تصفية قضية" لا فلسطين بعد اليوم.

* * * * *

تكتب لها وردة:

- خائفة أنا يا عمتي.

هل تخاف الصبية من هجرة قريبة على مسرح الألعاب؟

يحرك خيوطها "بلير" يتقافز على خشبته "باراك"، "أولمرت"، "رايس".

"حسن الحوراني" من روحه يحكي حكايات دامعة "وردة لا تموت، تسافر في كل الفصول، وعطرها في القلب لا يزول".

يبني قصره في فضاء روحه، بلا جدران، له فوانيس من وهج الشمس، ترشد الغرباء على الطريق.

حسن ووردة يكملا طريقهما في السفر الطويل، يصطادوا الديناصور، يطبع قبلة على خده، يبتسم ثم يبكي، ويطعمه العشب، يوافقه الديناصور على رحلة العودة، وشاهدا على عرسهما الخرافي.

(٦٣)

هل ستقدر عين عدسة التصوير أن تكمل مشوارها، تجاهد على مطالع جبال وسفوح، وديان وأنهار، أغوار وتلال.

تقف من هناك تسترق اللحظات من عقرب ساعة لا يتوقف عن الدوران، دراجة تجوب طرقات، تحفها من الجوانب بيوت مهدمة، سياخ حديدية نفرت من جسد خرساني، وقد تهالك من ضربات الإف ١٦، تدور بعجلاتها، تجد لها ممراً للوصول، وخيالات سابحة، تراود أحلام الصغار، فكرة الألعاب البهلوانية تتقافز من فوق دراجاتهم، يثبتوا مهارات تميزهم.

من عين عدسة التصوير، صوراً لوطن تهدمت بناياته، وأرض تنبت من شجر اللوز زهرات بيضاء، وطريقا لذو الدراجة.

"حسن في كل مكان، عنده دراجة لونها جميل، مزخرفة بعناية، صوت جرسها لطيف، ترن.. ترن".

ترسل لماجد تسأله عن "حسن حوراني" وعن آخر مرة رآه فيها.. لأول مرة تصلها من ماجد رسالة دون الصور، حكايات عن "حسن في كل مكان".

– قابلته مرتين، في مدينة رام الله عام ٢٠٠٠، والثانية في صيف نفس العام، في مدينة عمان، عدنا على رام الله، وكان لي معرض، وإثنان من زملائي، باسل المقدسي، وشريف سرحان، أسمينا المعرض "شبابيك من غزة" رأينا أن تكون لوحاتنا، هي من يسافر بدلا عنا، وأن يرانا الآخرين من خلالها، ظهر وجه "حسن" بيننا، نسمة عابرة من محيط القمر، تلامس وجه الأرض، يرتب اللوحات، ويختار الإطارات التي تلفها، ومكان عرضها، وزوايا بعيدة، قريبة، مهاجرة.

يأتي القدر، ويأبى إلا أن يختار "حسن" يسافر على وجه موجة تأخذه إلى القاع في بحر "تتانيا".

نسمة رحلت عنا، وظل المعرض، وكل اختياراته، ولمساته، تنبض من روحه، دما ولحما، وقعنا على إهداء المعرض لروحه، سبع سنوات مضت، عدت إلى رام الله، ومن يومها والمعرض في ترحال دائم لأكثر من مكان.

* * * * *

كلمات ماجد طيرت النعاس من جفنيها، ظلت عيناها شاخصتان في فضاء المدينة، من خلال فتحته شباك، وكأن الحزن برعم يولد من جديد، ودراجة لها صوت لطيف، تقول.. ترن.. ترن.

صوت جرسها له وقع الخوف في قلب حنين، تخاف على اليوم والغد والأمس.

كل الأوقات في عبارة واحدة تطن في قلبها.. ترن.. ترن.

وشبابيك من غزة، وحسن يطل عليها في كل مكان.

(٦٤)

"**حسن حوراني**" ذو الدراجة، دراجته تمتطيها وردة، تطلق ضفائرها لريح معاكسة.
صنع لها وسادة، تريح رأسها عليها، وزرع لها زهرات اللوز البيضاء، فتغري الريح على حملها.
وردة تحوطها ألوان الشفق، تصبغ سوارها، ضفائرها ووسادتها.
حسن يرسم ألوانا مسافرة، تطير بوردة لكل مكان.

(٦٥)

"جورج كاتسمان" كان يبحث عن وطن عقاري، وطن يشتريه بسعر بخس، قالوا لنا، أن الشقق أرخص، وأن الجو جميل، سألنا عن حكاية تسمى "الانتفاضة" قالوا:

– عرب يلقون حجارة.

"ايجور بلكين" طباخ من "لينتجراد" لا يعرف عن حقوق الإنسان، ولا التاريخ ولا مسطح الجغرافيا.

الحجر هو الحجر، جسم يندفع نحوه.

الحجر هو الحجر، لا يعرف ما وراءه من سنوات طويلة، صراعات، مخيمات، أطفال لم يحتموا إلا بظل خيمة، دقت أوتادها في العراء.

"ايجور" من "لينتجراد" لا يكترث من كل هذا، يلوك لعاب فمه، يسمع صوته، تتطاير كلماته من حضن الصهيونية، يتلقفها "حاييم هيرتزوج" وكيف يبلور جوهر الحركة الصهيونية في "الكيبتس"، هجرة، استيطان.

"عندي الآن الحق أن أعيش أينما أريد"

كيبتس، تنظيم جماعي للسلب وتوزيع الغنائم.

"الإسكندر باريتسكي" من سجناء صهيون، إثنى عشر عاما، هاجر في نهاية الأمر لوطن حنين، يتأمل أن يجد شباكا هناك.. قادمون جدد، وبؤرة بطالة تزداد اتساعاً.

نحن سود.. هم بيض.

يكابر، يجاهر:

– سأكون مهاجر جديد مثالي.

– أي نوع من العمل تريد؟

– مهاجر جديد.

– أين ولدت؟

– "بتاح تكفا".

من يكون غريم حنين؟! هل هم السوفيت الذين وافقوا أن يلقوا بشريحة من البشر إلى بلادها؟!

(٦٦)

عند البوابة الحديدية وعلى جانب من نهاية الدرجات الأربع، يقف كراوية بخديه المنتفخين، ونظارته السميكة القاتمة، تستدير على وجهه وتكبر استدارتها حتى لتكاد تبتلعه، نصير يحاذيه، تلمع عين نصير، يهمهم ليبدأ الحديث، يخفف بعضاً من الحرج قد يلحق بصاحبه:

- الكتاب يا أستاذة؟

وقفت تسترجع شريط من ذاكرة بعيدة:

- الكتاب.. هل استقرت آرائكم على ثمنه؟ ألف ورقة نقدية هي فوق طاقتي.

تقدم نصير خطوة، يتلعثم في حروف كلماته:

- أي ثمن تدفعينه سنقبل به.

قاطعه كراوية، يغالب حرجه بابتسامة تتسربل من قسمات وجهه إلى ضياع:

- أنا جئتك اليوم خالي الوفاض، لا أملك من حطام الدنيا شيء، وأنتظر ما تقدميه، أي مبلغ سأرضى به.

الصدمة ألجمتها، حقيبتها لم تكن خاوية، ولكنها تريد أن تخلو لنفسها، تفر في حالها، حنين تشتري مدينتها. هي الوحيدة الواقفة بين الجمع اليوم تقايض على الثمن، كتاب بلون الزيتون، هلال يحضن نجمة، صليب.

ولهفة نورة عليه في ذلك المساء، تستحثها أن تشتريه، وكيف نام العرب أكثر من مائة عام، والآخرين يخططون لسلب الأرض، ونحن تركنا وديعتنا في حضن السلام، وبركة الأيام، أشارت لهما تستجمع قواها، بلهجة يغلفها الشجن قالت:

- أستاذ كراوية بعد غد سأنقدك المبلغ الذي أقدر عليه.

غاب بها الطريق، تود لتصل لتعد أوراق نقدية تشتري بها مدينتها.. مدينة الحلم.. السلام.. من يشترى أشياءه؟ من يشتري موطنه؟ من يستباح فينا؟ هي المؤامرة.

(٦٧)

على ناصية الطريق دكان جرائد وكتب، أرففه متربه، والجرائد تبدو ساكنة على صمت أليم، تشكو حالها من زمن طويل، حنين لا تقرأ الكلمات المنمنة، بل خطوط عريضة ممزوجة بالألوان، أحمر، أصفر، أبيض، تسال الرجل:

- مجلة العربي؟

ناولها في هدوء، تمضي بها، تقلبها، فتظهر على غلافها صورة مدينتها "القدس" ومرارة الابتلاع، القدس وما حولها، خرائط وملفات، الحالة أخذتها لتطرح ألف سؤال، هنا القدس بالخرائط، والكتاب الأخضر خرائط تحكي حكايات قديمة، وإحصائيات عن نسبة اليهود في فلسطين في العشرينيات، لأول مرة تتجنب النظر للخرائط، ترفض الابتلاع، الالتهام، لونت رؤوس اليهود بالأصفر، العرب بالأخضر، الأصفر يلتهم الأخضر على مساحات الخريطة، تطوي حنين أوراق الوطن العربي، تصرخ ملء كيانها، لن يأتي الأصفر ويلتهمني، ستظل خريطتي هنا باقية.. أخضر دون الأصفر.

(٦٨)

يكبر الأبناء، قد نحسبهم لا زالوا صغاراً، وإذ بنا نرى وجوهنا تنعكس على ملامحهم، تقف الصبية وقد فكت جدائلها، تلم دفاترها، تنتظر أن تكتمل دائرة الزملاء، يسألونها عن هويتها، تقول لهم:

– أمي من فلسطين.

– نعم هم من باعوا أرضهم وفرطوا بها.

ينفذ لجلدها الرقيق سهم ثاقب، تجادلهم، تعلن رفضها وأسفها!! كيف نتعايش مع تزوير الحقائق، ونقلبها، فتصبح جزء من تاريخنا.. حاضرنا.. مستقبلنا؟! كيف تغيب الحقيقة؟ بل نحن من يغيبها بأيدينا؟!

منذ أربع عقود والجملة هي ذاتها لم تتغير، تنشأ الأجيال على الزيف والخذلان، كم من المرات سمعت حنين ذات الجملة:

– هم من باع، ومن فرط.

كانت تدير ظهرها وتمضي عبر طرقات واسعة، ينتظرها أخوة لها من ذات المدينة، يتهامسون، تأخذهم الدهشة، يضحكون، تتقافز ضحكاتهم فوق رذاذ الموج وضباب الشتاء القادم إليهم، تضحك حنين:

– ياللسخرية! كيف يفهمون هنا الحقيقة؟ الحقائق مقلوبة!! هل يحق للهندي أن يبيع الهند للبريطانيين؟! هل باعت ليبيا للإيطاليين؟! أم أن هنود أمريكا باعوا للأمريكان وانتقدوا الثمن كنتونات يعيشون فيها، الفلسطيني باع مقابل خيمة، تحملها رياح الشتاء الباردة على مصارف الأمطار، وطين الأرض، حين يغرقها البلل.. الفلسطيني باع وقبض الريح الباردة.

(٦٩)

مَنْ يبيع ويحلم بالعودة، تحمله حافلة تصطلي بوهج الشمس؟! حنين ويوم من أيام تموز، والسؤال "هل يسترد البائع ما فرط به دون الثمن؟ لماذا يعود البائع الفلسطيني في صيف يوم من تموز". قالوا لها: "ستعبرين من المنفذ بتوصيات من شخصيات مهمة، ستجدين اسمك وأمامه علامة خضراء، بها تتخطين دورك عن آلاف أمامك" مئات على الطريق من منفذ رفح البري، آخر أول بوابة لفلسطين.

نور الشمس يعلن عن ميلاده، يلامس كل كيانات الأرض، الظلمة تتسحب بعيدا، تفسح مجالاً لشروق جديد. دخلت صالة الجوازات، ارتعد قلبها لجبال سوداء في فراغ خلف المبنى، مدينة رفح تسكنها جبال سوداء، تتناثر بقاياها من كل صوب، تقترب من النافذة الزجاجية وإذ بالجبال تصير حقائب سفر، النسوة يفترشن الأرض، ينطرحن على بقايا علب كرتونية، أطفالهم لا يلعبون ولا يحبون اللعب، ينهشهم الوقت والضياع، من كل المدن جاءوا يفتشوا عن أرض فرطوا وباعوا عليها، تسأل والحزن يفطر قلبها:

– منذ متى هذه الحال؟!

– منذ أسابيع، ألقينا بالحقائب في هذا الفناء فصارت جبالاً سوداء.

الأسماء تذاع بمكبر الصوت، تسمع اسمها، تخطو من فوق الأجساد المبعثرة، النساء متعبات يتقلبن على جنوبهن، تذكر بيوت لهن يحتمين بحوائطها، تنام المرأة في بيتها وقد ترتعد لو أن ستائر حجرتها غير محكمة في إسدالها، تزيحها بيد قلقة، تشخص خوفاً من أن أحد لمح جسدها في غفوته.

على معبر رفح ينام الرجال والنساء أخوة على سياج الوطن، لا رجل، ولا امرأة، كل سواء، كيان معذب تحت وهج الشمس، أشار الشرطي قائلاً:

– إلى الحافلة، الجانب الإسرائيلي حدد لنا قافلتين للمرور هذا اليوم، سيدخل معكم أكبر عدد ممكن، رحمة بالناس وحالهم.

ما أن صعدت في قلب الحافلة، كان شطر الحافلة الأخير منزوع المقاعد، صارت حقائب، والنصف الأمامي لا يظهر منه شيئاً، أجساد فوق أجساد، وما بين الحقائب وسقف الحافلة فراغ صغير، ينام عليه أطفال في عمر الفطام، قيظ تموز يأخذهم للغليان، الصاعدون للحافلة لا يتوقفون، حضر رجل يفسح طريقاً لأفراد أسرته الفتيات يتحسسن أماكنهن ببطء شديد، الصبية ضريرة وأختها أيضاً، جلسن يقبضن على ظهر المقعد الأمامي، يشخصن لفراغ من أجساد معذبة، ظهر وجه الصبي، العرق يغلف جلد وجهه، يلكز شقيقته بأن تجلسه على حجرها، أخذ مكانه وهي ممسكة بظهر المقعد، تحوط عليه بساعديها، الشمس تضرب الوجوه، تخترق مسامات الجلد، قطرات العرق تسيل من أجساد تقاوم الغليان، شيوخ، أطفال، نساء، رجال، جميعهم يقبض على طريق عودته من بوابة رفح إلى فلسطين.

السائق يعيد كرة الصعود والنزول، ينتظر إشارة من المجند الإسرائيلي، ويفتح محرك الحافلة ويمضي لأمتار قليلة، الجندي يعلق نظره على الحافلة، يمضي دون أي إشارة، السائق يخاطب الركاب بلهجة محذرة:

- إياكم وإخراج الأيدي من الشبابيك وإلا كان الثمن منعنا من الدخول، ونعود نتوسد الرمال، نستقبل شمس الغد لتلهب جلودنا، لا نريد أي حركة لتسير الأمور طبيعية.

تتمتم الصبية الضريرة في صبر موجع:

- متى سنمضي؟! أين نحن؟! تعبت كثيراً.

صرخ الصبي في نزق:

- لا تنزليني عن ساقك، لا مكان لي أقف عليه.

يهاجمها العرق، يتفصد من مسامات أنفها وجبينها، تشد بأناملها على ظهر المقعد الأمامي، تحاول أن تبثه صراخاً مدوياً، شقيقتها تلف رأسها في هدوء وكأنها ترى عالماً بعيداً عن مساحة الحافلة، يفتح شاب حقيبته، يخرج قطعة شيكولاتة، ناولها للصبي، وقطعة أخرى لحنين، يجلس على زاوية حقيبة أمامها، وتجلس هي على حافة مقعد تتزاحم عليه أجساد وحقائب، تسأله عن اسمه:

- محمد أبو صفية، عائد في عطلة الجامعة.

- أي علوم تحصل؟

- أدرس الطب.

أشار لصديق له في الجانب الخلفي من الحافلة:

- شريف صديقي، يعمل في تقنيات الحاسوب، له خبرة رفيعة، يستعينوا به هنا في مصر، يحمل في صدره جهاز ينظم ضربات قلبه، القلق يتسرب إلى نفسي، أخاف عليه طول الانتظار في تلك الحافلة الملتهبة، خمس دقائق وتصير الساعة الرابعة، إذا لم يشر المجند إلينا خلال الخمس دقائق سنعود نلتحف فضاء سيناء، نستنشق لهيبها.

لفت ساعتها على معصمها، تشخص في عقرب الدقائق، ووجه المجند الواقف مثقلاً بأسلحته، تحذيرات متتابعة ألا تخرج كف يد صغيرة من شباك الحافلة، الضريرتان يسكنهما صمت يهجع على عذاباتهن من بوابة الانتظار، أرخى الصبي ساعديه وغافلته لحظة نوم، ضمته أخته، أخذته لصدرها وآثار من قطعة الشيكولاتة تضمخ أنامله.

من باع هنا في تلك الحافلة؟ من فرط منهم ويريد أن يعود يلتمس دفئاً من حوائط بيت قديم، أو مذاق من طعام لا يعرفه أحد في بلاد الغربة؟ يشتاقوا لمذاق طعام من تاريخ بعيد، تتذكر كيف كانت تتفكه مع صديقاتها، تسألهن:

- هل سمعتن عن أكلة تسمى "الرمانية" أو "السماقية"؟!

يجبن بصوت واحد:

- لم نسمع بهذه الأسماء ! إحكي لنا عن الرمانية؟

- من روح الرمان.

- السماقية؟

- من قلب السماق.

تأخذها تنهيدة ذاوية.. الجميع يحلم بمقعد حجري خلف البوابة الحديدية، يزيحوا عليهـا عـذابات الرحلـة الطويلة.

يشير المجند على عقارب الرابعة، تمر الحافلة، تشحذ همتها لعشر أمتار، هي حجم المفارقة بـين الغربـة والوطن.. ينتشروا بعد الوصول، كل يبحث عن حقيبته، صوت شريف يناديها:

– لا تنتظري يا حنين، ترجلي أول عربة تأتي إليك، قد يبدأ تراشق الرصاص على الحاجز، ونعود لعـذابات الوقت ينهشنا.

الوطن.. أشلاء.. رصاص.. دوي مروحيات.. كل يعود لموطنه، يتفجر السؤال، يدوي، يروع الفضاء:

– من باع هنا؟ من فرط منا؟

(٧٠)

النجم يتعب من كونه نجماً يتفجر، يصبح مستعراً، مجرة اللبانة ضجرت من لبنها الحامض.. القدس هناك.. أورشاليم إله السلام لدى كنعان، أم هي يبوس من بطون العرب الأوائل في الجزيرة العربية.

قطع استرسالها في القراءة، صوت المذياع، تغلق الكتاب، تسند ذقنها على بطن راحتها "أخبار موجزة": فتح المعبر لأربع أيام متتالية.. درجات الحرارة.. القدس.. رام الله.. طوباس.. جنين.. الخليل، أريحا، غزة، خان يونس، رفح، يصمت المذياع، يدق نافذته صوت عبد الحليم، تقبض على قلمها مرة أخرى، وأوراق لاصقة، علامات على الصفحات، تعود بذاكرتها وتسأل: لماذا وضعت هذه هنا؟! ووضعت تلك هناك؟!

مجلة العربي، من سهول تهامة، إلى جبال عسير، تمضي مع العلامات، من يصور آلام الفلسطينيين؟ لوحة "جويا" الشهيرة مأساة الحرب الأسبانية، والمقاومة ضد الهمجية الفرنسية الشرسة، لوحات لكوارث الحرب لجويا.. بيكاسو ولوحاته، ما فعله الألمان، واندثار جثث الآلاف من القرويين العزل، هم سكان القرى البائسة.

لوحة "جرنيكا" ذات الثمانية أمتار، من يتأملها على ضوء فتحات أفواه المعذبين في فلسطين، أفواه معذبة، لها صوت لا تقدر على سماعه، "جويا".. "بيكاسو".. في ذات اليوم كان لحنين لقاء مع صديقتها بعد غياب طويل، قالت لها:

– هاتفت خالتي في "هيروشيما".

تلتفت نحوها مندهشة :

– هيروشيما؟! هل هي مدينتك؟

– نعم

– سنوات طويلة دامت صداقتنا، ولم تذكري لي اسم مدينتك، كنت أحسب أنك من بلد ما في اليابان.

– أنا ذكرت لك هذا، ولم تنتبهي.

– أعرف أنها أبيدت بالقنبلة الذرية، ولم يبق فيها حياة، ومن بقي، عاش مشوهاً، وأمراض استقرت في أجساد، تتوارثها الأجيال.

– نعم لقد راهنوا عليها أن تكون محترقة لأبد الدهر، ولكن الأخضر نبت في أرضنا ثانية، هيروشيما يحتضنها جبل من أمام البحر، والقنبلة ألقيت في الماء، على بعد خمس عشر كيلو متراً، التهبت الأرض والسماء، لما يفوق عن عشرة آلاف درجة حرارة، جفت حلوق الناس عطشاً، أخذوا الطرقات عدواً نحو البحر، ليبللوا شفاههم وجلودهم، فكان الجحيم، البحر كان أشد غلياناً، كما الفضاء والأرض، مائة ألف فقدوا الحياة في لحظات. مدينتي فوق الجبل المحتضن لهيروشيما، الجبل حال بيننا وبين الكارثة، فكتبت لي الحياة وأسرتي، وكان لي منها ذكرى، يمسك أبي بيدي، يسلك طريقا إلى متحف الشمع وأنا في العاشرة، لأرى الكارثة، وقد تجلدت بالصمت الشمعي، هناك تتفجر دماء وتعلو صرخات.. دموع.. وحريق في بحر

من الشمع، رأيت كيف تخرج أحشاء الحيوان المنطرح أرضاً، وكيف يتدلى اللحم وتتعرى عظـــام الأســـنان، وكيف تلهب الحرارة عملة بلادنا، يلتصق الحديد بالحديد، يسيل بكاء، ولكن حروف الكلام لا زالت باقية.

بكيت في ليال طويلة، لم أنس أهلي المسكوبين في قوالب الشمع.

(٧١)

صعد "يوسي" ببطء إلى الدرج، بينما كانت ترفرف بفستانها المزخرف، تهمس له:

- من حجرتي، يمكننا رؤية القدس، الناس، الفوانيس الملونة، ساحات المدينة، سأستلقي على السرير وأنظر إلى القدس، فهذا يعطي إحساساً، بأنك تمتطي السحب، ولنمارس الحب على مشهد من القدس كلها.

قضى يوسي ثمانية وأربعين ساعة على سريرها، أكل ونام ومارس الجنس.. ثمان وأربعين ساعة "يجآل ليف" يكرر ذات الرقم الزمني، فعلى عقارب القدس تدور ساعته، يطفئان الأنوار في الغرفة، يرفعان الستائر، يطلان على مدينتها، السرير كان ليوسي ملاذاً، يفتح له فوهته، يسقط إلى أعماقه، يقفز عقرب الزمن ثماني وأربعون سنة من الدقائق إلى السنون.

ماجد شلا يكتب لها "مررت بشوارع مدينتنا، هل سمعت عن أحجار تذرف الدمع؟! هل غيبتك أزقة مزقها الحزن؟ القدس حزينة يا حنين".

غسان كنفاني يطل بوجهه، يشير لها بيده، يدعوها إلى الشعار الصعب "اعرف عدوك" يجآل ليف أمامها دماً ولحماً، وهي التي لم تلتق به من قبل، هل يكتب الكلمات أم يقاتل بها؟! كيف لعاشق الكلمة أن يمسك بندقية ليغتال الذاكرة فينا؟!

تستلقي أمام ذبيحة تنزف حكايات، يعود إليها بعد أن ينفض عن جسده آثار رائحة الدم، ويغتسل من الكراهية، ليكتب ما لا يعرفه، ويعيش حياة متضاربة "والله يا أمي إني أكره الحرب" يحتله غليان عاش معه في ساحة المجزرة، ينهض بقلمه ليكتب "الحرب تحب الرجال".

يأخذه الوهن والضعف، تخذله قواه، يركع على ركبتيه وفي جنبه خنجر مسنون، يرفع طرف عينيه يخاطب عدالة جريحة، يكتب مذكرته وقد بدأها:

- سيدي القاضي..

ينتفض مرة أخرى، معاوداً صولاته وجولاته، وينتهي بأن يمارس الحب على مشارف القدس!!

كلمات ماجد لها:

- القدس توشحت بالحزن يا أختاه.

* * * * *

هناك أيضا يعيش "مردخاي طبيب" واللقاء الأخير، ولحظة ارتباط بالمدينة القديمة، رغم كل ما فيها من وحشة، يعلن عن حبه لها، رغم تجهمها له، يرى فيها برودة وصلابة، ثقيلة وألوانها كالحة، ورغم كل هذا يحبها، يرى فيها من كل ذلك سر حسنها وجمالها.

"مردخاي طبيب" لا يسمع وقع خطواته على أرض القدس، هي تبتلع صدى دقه عليها، عكس مــدن الــدنيا كلها، كمن يدق بمفصل إصبعه المنحني على برميل خال، وعلى برميل ممتلئ أو برميل خمر طازج، وبرميل خمر يعود لمائة عام.

ماجد وصدى كلماته يطن في أذنها:

– القدس توشحت بالحزن يا أختاه.

"إم جبر" هل يعرفها "يهو شواع" التي جعلها خادمة في بيت سلبه يوسي منها، هي تنام في حضن حــوائط منسية، تطل بها على بوابات ومعابر، هي كل النساء اللواتي التحفن العذاب.

جميعهم يعرف كيف تختزل كل المدن والقرى في مدينة لا تسمع وقع أقدامك فيها "القدس".

هل سقطت صفحات كتبها الأديب "يجآل ليف" القائد العسكري المقاتل عن مجازر ارتبطت بأسمائها؟! وكيف قبض رجاله على السلاح، يعتدوا على قرى آمنة، دمرة، دير سنيد، هربيا، وكيــف يحكــم الحــصار علــى النساء، ويكشف رجاله عن بطونهن، يتغامزون، يتحازرون، هل يكون الجنين ذكراً أم أنثى، وكيف تتنــامى الإجابة في بقر بطونهن، فيظهر الملك في اللعبة الدنيئة، ويتحول لكلمات مكتوبة، الأرض، الجرح، وزيتونة لن تنكر أبنائها، يحمل بطاقة لا يتنازل عنها أبدا "فلسطيني".

* * * * *

"يجآل ليف" كاتب ودارس للفلسفة في الجامعة العبرية، سقطت أوراقه عن الهجرة قسرا إلى يبنه، ســدود، حمامه، حفاة عراه، وكيف استيقظت يافا على مدافع المورتر، وقذائف نارية، وطفل لم يفتح كتب مدرســته، كبر الطفل، ولم ينس اسمه "رمضان الخريبي".

أوراق لم تسقط عن صحاف محمولة بيد الأطفال، تمتد متعبة من طول الانتظار لمغرفة تسكب لهم صــحن إعاشة، يضموا حبات القمح لصدورهم في خرق من الخيش.. من باع هنا؟! من فرط فينا؟!

(٧٢)

تتسحب رويداً إلى عجز النصر، الأسطورة المغلقة، وحياة لهم تقترب من خط النهايـــة.. هويتهـــا بـــين قوسين "أرض وشعب".. هي الأرض، هي الشعب، وما بينهما فضاء لها.

الشعارات من حولها تقطر دماء، ميثاق حياة لهم أن "إسبق أنت واقتله".. قتل يعادل الزمن، تواريخ مـــيلاد تقسم وفقا للحروب، على خطوط حمراء يولد جيل، وينتهي عندها جيل، الحيرة تجرفها للجة العتمة، كلمـــات مكتوبة على أغلفة الكتب، تسحبها للقاع، تقاوم لأجل الحياة، تشهق، تسترد أنفاسها، تنقبض رئتيهـــا علـــى أسنة من شهيق وبركان زفير، في أتون اللحظات المريرة تقذفها علامة السؤال:

كيف يولد النصر عاجزاً؟! أنا التي جبت البلاد طولاً وعرضاً، من أنا من تلك الليلة فـــي خريـــف عمـــري؟ علامة السؤال تعيدها للقاع، تقاوم، يشدها الفضاء لسطح اليم، يعاودها السؤال:

– من أنا؟ شعب بلا أرض.. أم أرض بلا شعب؟ وهل يختزل العمر كله على حروف هذه الجملة؟!

(٧٣)

على عتبة مركز البريد تنشد أملا ضائعا، تدور بالمفتاح، تظهر لها مظاريف وكتب، المرسل "محمود سالم، منوفية" على هامش النار، ما شد انتباهها كلماته المهداة إليها "هذه كلماتي، تستمد منك صلابتها لتحيا من جديد".

هو لا يعلم أنها تعاني، تتشظى أحلامها بعيدا كل ليلة، كيف يراها صلبة قوية، وهي الملقاة على حدود بعيدة؟!

تقبض على كتابه تقلبه بفضول جارف، تشهق وتعب أنفاسا من فضاء الأرض، يفضح الزيف والتزوير، يعدو وراء حكايات الصغار، وكيف تقبض راحاتهم على حجارة، يميتوا بها الأسطورة والوهم فيهم.

"أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض".

يتغلغل هاجس الفلسطيني في كيانه، تضلله ملامح الخريطة، يأخذه التيه لأرض مجهولة، يعيش الشتات، "محمد سالم المصري" يبحث عن طريق يؤدي به لبلدته، الحجر وكيف يتخلق من كيانه أشلاء تنزف دماء، كيف ينطق صمته في قصة "وماذا بعد" هل لبذور الوهم أن تنبت في أرضه؟ من عيون البراءة يجدل أنشودة الحقيقة، فتسكن صدره، يترك لها أقلامه لترسمها كيفما تشاء، يعرف بها حكايات المعابر، والحواجز، وكيف يولد الأطفال عليها، تصرخ النساء، يأخذهن الألم، تتفجر ضحكات من بكاء طفل وليد على معبر رفح المؤدي لفلسطين.

(٧٤)

وردة هي ميلاد جديد، تتوسد الليل، تحلم بالغائبين، تسدل أهدابها للعتمة، ينبثق النـــور، تأتيهـــا حنـــين، تضمها، تبكي شوقاً، وردة أرض وشعب، نبتة لم تغادر طينها، يضربها السؤال بالحيرة:

- لماذا تتشح عمتي حنين بالأسود؟!

رحل الحلم، وظل الشوق، برعم في قلب وردة، حكت لجيرانها، لصديقاتها:

- الليلة زارتني عمتي حنين، أقسم أنني رأيتها، كنت أنا وهي ووسادتي.

(٧٥)

على خط شريط القطار، تقبض على المسافات، تودعها في بلاد آمنة، تجوس بعينيها على سطور الكتاب وعالم الاجتماع الفرنسي "جورج فريدمان" أهي نهاية الشعب اليهودي، والملابسات الاجتماعية والتاريخية التي صاحبت مسمى "الصبار".

يكتب الصبار على تلك الصفحات من العالم الفرنسي، وماجد يرسله لها صوراً على وجه الحاسوب، يكتب لها "كلما وقعت عيني على صورة من مدينتنا، يحدثني قلبي أنها لك، قد تؤنس روحك وتعيد إليك الفرح.. يزهر اللوز وتزهر صباراتنا، براعم ورودها تتوسط أكمام بلون الشفق، زهراتها قرمزية تضمخها خيوط الشمس، وأخرى تحمل وليداً من عين الحياة، صبارة ليلكية لك هدية، صباراتنا عائدة للحياة، تنام على عيدان الشوك لتحنو عليها".

جورج فردمان تحدث عن صبارات فلسطين وكيف يتصارع فريقين عليها، من عاش على تلك الأرض، ومن حط عليها من سفر طويل، وصراع على من يتمكن من نزع قشورها ليفوز بالثمرة الحلوة.

وتنزع الأسماء لتكسو وجه الحقائق المزيفة، صبار لجيل الصباريم الذي يحتمل المشاق، وجيل السفارديم هم رجال من الشرق.

لإبن الجيتو.. وصمته عار ليهود أوروبا، هو الذي مشى كالشاة إلى المذبحة.. من الصبار يصنعوا منه نبوءة الآباء المؤسسين للاستيطان.

وماجد يرسلها صور، تنام البراعم على شوكها.

(٧٦)

من مقاعد حجرية في محطة رمسيس أراحت ظهرها من عناء الرحلة، ترنو للقطـارات العـابرة، تـسكن أمامها بعض الوقت، تمرر نظرها على فتحات النوافذ، تفتش عن عيون مسافرة أخذتها المحطات الهاجعـة، يعتصرها ألم الفراق، تشخص في فراغ الأرصفة، تتسابق الأقدام لصعود القطار، رجال ببـزات عـسكرية، وأغطيتهم الصوفية بلون واحد، ملقاة فوق ظهورهم، تتمتم من روحها "هو صقيع ليل طويل".

وقف الصبي أمامها، وشبح الغربة يخايل أحلامه، يسألها:

– خالتي، من وقت طويل أنتظر قطار يأخذني "لبني مزار" هل تدليني عليه؟

خلع الصبي فؤادها، نهضت تدله، تمسك براحته الصغيرة، تأخذهما درجات سفلية، يظهر قطـار الجنـوب، يطلق صفيراً متحدياً في فضاء رمسيس، تنادي أحدهم، يرفع الطفل لبطن العربة، يصفر القطار، يعلن عـن بداية الرحلة، وعين طفل لا تبارح زجاج العربة، يودع أرصفة الغربة.

عادت لمقعدها، تتشظى في محطة رمسيس، تلمها بقايا من أجساد مكدودة، وعين أسدلت الأهداب عليهـا، رفعت رأسها، تنظر قوائم حديدية قديمة ومدى يأخذها إلى هناك، من رحلة لن تنـساها، لعهـد بعيـد، مـن محطة منسية "غزة.. الشجاعية" إلى رمسيس، تريح ظهرها على المقعد الحجري، تذكر آخر لقاء معه:

– أي قدر حملك إليّ؟! لا أرى من النساء سواك، بدونك يسكنني العذاب.

تغوص في أغوار تنهيدة حبيسة "هل تاه الرجل في دهاليز قلبه لطرق لا نهاية لها؟! هو لا يرانـي كيـان يذوي، وفتيل ينضب زيته، نوره من بقايا خيوط الشمس.. كيف يراني حياة وأنا على خطوط النهاية؟! كتلـة من نار أكون.. هباتها من حنين، يضمخ الأرض بالشجن والوجود المتجذر للبقاء، يومها ذكر لـي أسـماء أبطال غيبتهم الأقدار، سألته:

– هل تزور أخاك الشهيد؟ أين ترابه؟

– أخي يرقد في مثلث على طريق السويس، هو ورفيق له "محمد نجيب" الشيخ يقرأ الآيـات وأنـا أنثـر الورود وأمضي لعودة أخرى.

معه لا تعرف من تكون، هل الزائرة المقيمة؟ أم الراحلة إلى هناك؟ أم هي طيف يقتفي المحطات المسافرة، كيان يجلس على مقاعد حجرية، يلاحقه سفر طويل، تمضي تلم الحكايات، لتبقي حكايـة مثلـث الـسويس، وعبارات مرسلة على وجه الحاسوب.

(٧٧)

يغافل حنين ضوء يجتاح حجرتها، تنتفض من فراشها، تتهيأ ليوم لن يختلف عن الأمس، الأمس ينهك قواها، تهرب من الحياة إلى فراغ يهوي بها ليعيدها مع نور نهار جديد، رسالة من وردة، تطلب منها أن تفتح شاشة الحاسوب، تفتح رسالة وردة بعنوان "محمد".

تحدث نفسها، هل يكون ابن أخي الصغير؟ كم أخاف من رسائلك يا وردة، ملفك الأخير كان تهدم ودمار، وتناثر زجاج، هل يكون الصغير بخير؟

تفتح الملف، فيظهر لها وجهان لرجل واحد، هو أبوها.

تجمدت نظرتها على ملامح وجهه العنيدة، تتحسس وجهها، هل تجد ما يشبهه فيها؟

لم يرمش جفنها، شخصت نحوه بروح عذبها الفراق.

تخبط على قدمها:

– ماذا تفعل بنا وردة؟!

أبانا في عنفوانه صورة، وفي المشيب صورة، على نظارة تطوق عيناه، أيقنت لحظتها أن نظارته هذه هي المخبأة في خزانتها، وكيف ساورها الشك يوم وجدتها غليظة، ثقيلة. أنها هي، ذاتها التي يحملها على وجهه، يرى من دوائر زجاجها عين الحقيقة.

على ملامح وجهه تاريخ وطن، يبوح بالفجيعة، وكيف يغادر الحياة بجسد ينزف من الروح أوجاعا تنوء بها الجبال؟!

(٧٨)

– حنين لم غادرت رأس النبع إلى الإسكندرية؟ لم تنالي سوى العطش والبعد عن عين الماء الأولى، هي الغربة التي لا تفارقنا.

عودي.. حتى إن لم يحضر الجسد، فاجعلي الروح أن تعود، ففضاؤها أسبق من وعاء الجسد.

روحك هنا.. وجسدك هناك.. من الخاسر والرابح فينا؟!

من يملك الروح لا يغالي بالجسد.

لا تكوني جسدا هناك فقط، كوني جسدا وروح وعودي.

عودي إلى مطارحة الشوق وأسرار الحياة.

نحن في الانتظار يا امرأة تملأ الجوانح فيضاً، والفيض جسد المستحيل.

* * * * *

هل عاد الزمن إليّ يهديني نفحات من حياة؟!

ما سر تلك الكلمات المرسلة؟! تعيدني للأمس المستحيل، لامرأة تطوي أيامها، وتلقيها، كدت أيامي نضبت، والحكايات مضت لكواكب أخرى تسكنها الشمس.

في هذا المساء أخذتني كلماته لأيام الحنين.

هل أنا من تكتب إليك؟! أم امرأة تركت الاسم والعنوان على مفترقات طرق غريبة.. وأنا التي تعرف أحبابا لها لن تخطئهم أبداً.

هل رحلت عصافير التوتة؟ وأخذت أعشاش لها.

هل لي مطرح هناك؟ أم أن طرقات مدينتي ضيعتني وغاب العنوان.

(٧٩)

يكتب إليها على وجه الحاسوب من الضفة الأخرى لوطن سجين:

– عندما يصمت الهاتف تحضرين مشاغبة على نمط آخر، أي النساء أنت؟! لـو عرفـت أخبرينـي، فأنـا أعياني السؤال: هل توصلت إلى حنين التي فيك؟ أم انك تبحثين عنها بين مئات النساء الساكنات فيـك، مـا يحيرني أني لم أستطع العثور عليها، هي امرأة سراب، هل تخيلت رجل يبحث عن سراب؟! هي لعبة عابثـة كما الحياة، ولكنك تحضرين مشاكسة، مشاغبة، متمردة ومقاتلة، يملأ مقلتيك دمع مكابر، وخـذلان مقـيم، تتجملين بما لا تتجمل به النساء، وتعشقين بما لم تعشقه النساء، وتأكلين زادا لـم تتعـود عليـه النـساء، وتشربين ماء مختلف.. أنت مختلفة عن كل النساء.

وهذا سر سحرك يا امرأة..

أنت المجون.. أنت الجنون..

أنت نوارة حنون صارخة.

أنت مرضعة نائحة.

أنت ظل امرأة تسير على الأرض، لكنها ساكنة في السراب.

أنت امرأة سراب، هل أسكر من كأس يطفح بالسراب؟!

إنه كأس امرأة غائبة.

كلما غبت حضرت، وكلما حضرت سكنت بين الوجوم والوهم.

أنت حالة تحضرين، وأنا ليس لي غير القلم، أكتب الحنين، ربما أكتب نفسي بما يسكننا، هـي الغربـة، أو ربما ودون أن ندري نسكن في بحر الألم.. هكذا أنت يا سيدتي كلما غبت حضرت، وكلما حضرت تـشتعلين امرأة من وهم، من سراب.

من تكوني يا سيدة العذاب أخبريني؟

(٨٠)

يوم تقابلت مع "سمير أبو الفتوح" كانت "شوشا" الحاضرة بينهما، كان وجهه متوشحاً بالنور، على ابتسامة صافية، مشرقاً، مبتهجاً، صافحته بحرارة، وأبدت له امتنانها لمجهوده في ترجمته لرواية "شوشا" قال لها:

- "إسحق سنجر" لن يفلت من قبضته يدي.

- ماذا تقصد؟

- سأوضح لك، لقد طلبوا مني في سلسلة الجوائز ترجمة أعمال لمبدعين عالميين، اعتذرت لهم، فأنا لا زلت أعيش كتابات "سنجر".

- ماذا تترجم له؟

- "مالك الضيعة".

جف حلق حنين، احتلها الوهن والوجل، هل ستخوض رحلة أخرى تشدها لجب سحيق؟ تحاول الاسترسال معه:

- عن ماذا يحكي في مالك الضيعة؟ الوطن البديل؟ هل أشار إلى فلسطين؟

- لم يتبع في "مالك الضيعة" هذا المنهج، كل الإشارات فيها عن حياة اليهود في شرق أوروبا، يتتبع أسر كاملة، وانهيارها مع مرور الزمن، بدايات تولد منها النهايات، وضعت يدي على مجموعة من رواياته القصيرة، أذكر منها "يوم الجمعة".

ساد صمت حزين، ثم عاد صوته يرن في أذنها:

- حنين إن اضطهاد اليهود في شرق وغرب أوروبا كان بسبب سلوكهم وتصرفاتهم.

- هل توضح أكثر؟

- فكرة الاستغلال، تكوين الثروات على حساب الغير، وأنا بحكم دراستي القانونية وضعت لي منهجا لأرد على كل الحقائق التي لونوها بالزيف ويروجونها، إرجعي للهوامش المكتوبة في "شوشا" ستعرفين المزيد منها.

- في خطتي العودة إليها مرة أخرى، تركت علامات، وصفحات مطوية تنتظرني.

(٨١)

تسلم خدها لرحلة مسافرة في ليل طويل، يؤرقها الحلم، تفيق على تثاؤب النهار، وكيف يتوارى الليل من خلف البنايات الشاهقة، والأزقة المنسية، يطبع قبلة حانية على زجاج حجرتها، تستعدل جلستها، تفتح عين المصباح ليزيح بقايا من العتمة، تنهض تتحسس مكانا تعرفه، تخرج من بين صف الكتب "شوشا" ليعود "سنجر" مرة أخرى، تقلب الهوامش، تنتبه لعلامات ألصقتها، صفراء، خضراء، وتسأل:

- هل يزيح الأصفر ما تبقى من الأخضر؟

في أسفل الصفحات تطل العلامات الخضراء، فيتوارى الأصفر في ضعف، يسكن ما بين الصفحات ملاذا، تقلب الكتاب في محيط كفها.

- "شوشا" هي بطلة الرواية الحقيقة، المرأة الطفلة التي لا تنمو، أو ترفض النمو، هي الحلم المبتور المريض، الذي يحن إليه كاتب مسرحي موهوب من يهود "بولندا"، وعالم من سفينة مثقوبة من جراء حروب وإبادة وعنف.

تتنهد حنين على وطن مفقود قبل أن تناله الثقوب، ويتهالك في أحلامها وطن ظل على طزاجته في ذاكرة أبدية لا تموت.

كيف "لسنجر" أن يحفظ الأشياء في مكان ما، حتى لا يكون الكون مشوهاً وناقصاً؟!

والوطن في دم حنين يندفع شلال إلى براح الأرض..

تفرد من ثنايا الغلاف، فتظهر الحواشي مكتوب عليها أعماله: "إسبينوزا"، مالك السوق "مالك الضيعة"، "ساحر لوبين"، "في محكمة والدي"، يمتد بصرها لأعلى الهامش، تستقر العين على "الشيطان في جواري".

تأخذها تنهيدة حارقة:

- هو ذاته الشيطان الذي يعيش هناك، ينخر في كيان الأرض التي أحبتها.

تسأل نفسها:

- ماذا سيترجم "سمير أبو الفتوح"؟

هل سيكبل شيطاناً ينخر في خلايانا مثل قواقع "تيبا" تلتهم كل شيء؟ وبعد أن تفرغ، تسكن، تبكي، تنوح على شكواها.

(٨٢)

يكتب "سنجر":

"البولنديون يريدون التخلص منا، ينظرون إلينا أننا شعب داخل شعب، جسم غريب، وتنقصهم الشجاعة للقضاء علينا بأنفسهم".

هل تهمس حنين في أذنه وتقول له:

– إن الصهيونية قامت للتخلص من أهلها، ينظرون إليهم غرباء، دخلاء، جسم غريب وحتمية التخلص منه، ولا تنقصهم أي شجاعة للقضاء عليهم حد الإبادة.

صوته يتنامى على أوراقه المكتوبة:

– "العالم لا يريد أن تكون لنا دولة".

سيدي، الدول العظمى هي من دفعت بكل قوتها لإقامة دولتك.

لم تنتبه حنين لصياح الديك، رغم كثرة المرات التي تسمعه فيها مع قرب بزوغ الفجر، يأتي "سنجر" ويذكرها بأنه ينبه عن ضياع وطن.

"سنجر" يسمع قوق الدجاج، وصياح الديكة من كل شق، ويرفض أن يموت الديك تكفيرا عن خطاياه.

ولكنه يقبل أن يموت الأطفال، وتذبح النساء، وتغتال ريحانة الشباب من أجل دولة لابد وأن تقام له في "فلسطين".

(٨٣)

تلتقطها على حبل هواء، تطل عليها من عين الفرح، تسألها عن موعد لطبع روايتها المكتوبة، تتعثر كلماتها، ثم ما تلبث ان تنسكب في كيانها، تمزقه فيتناثر شظايا ملتهبة:

- قالوا أنك فلسطينية، تملكين المال وتستطيعين أن تنشري كتاباتك في كل مكان، الشكاوي تصل إلينا مكتوبة، تحتج وتعلن عن رفض صريح لأن تطبع روايتك.

هل رأت دمعاتها تنسكب في ثقوب الهاتف، وكيف ضمت ساعدها لصدرها تجاهد للوقوف، دمعاتها أزاحت صفاء الصور وأحالتها لغبش، تطل عليها أناشيد كتبتها سترقد هناك، تنتظر من يواريها الثرى، هل تدفن الشمس وتصير بقايا من لهب لن يرى النور.

أخذتها طرقات مفتوحة، وأزقة ضيقة تضيعها ويضيع السؤال:

- فلسطينية أنا؟ من أكون؟!

(٨٤)

في نادي الكتاب تأخذ مكاناً قصياً، يمور الوجع في كيانها:

- جموع تصافحني، وهاجس يهتف داخلهم: "إنها الفلسطينية.. لا حق لها". يـا لفجيعـة قلبـي، المـرأة الساكنة بجواري تعرفني ولا تعرفني، أسمع همس أنفاسها "الفلسطينية تعيش بيننا، وتريد مكاننـا، تطبـع روايتها وهي الآتية من بلاد بعيدة، ليتها تعود من حيث أتت" لا أعرف ماذا تعني كنيتـي لهـم "فلـسطينية" الفاء، لام وسين وطاء، ياء، ونون المستقرة الآمنة، تتربع النقطة في صحنها، وأنا نقطة تتقاذفها الأمـواج، ترقب النوارس المهاجرة، كيف تتطيرها معها، نقطة أبدية على صحن النون، الرمز والـسر الكـامن فيـه، فلسطينية أنا، كنعانية أكون.

تتلفت من حولها، عن يسارها تطل ملامح "عبد الفتاح مرسي" منشغل بورقة تستنيم في بطن يده، يـصول بقلمه على مسطح أبيض، يظهر جناحي الطير:

- هو الطير الذي أريده أن يحملني إلى هناك.

تمر يده بالخطوط، فيظهر طائران يرافقان العصفور في رحلة العودة، ليستقر هناك علـى غـصن يميـل للريح كلما هبت نوة الشتاء، يكتب في أعلى الصفحة: "جرح أنا.. من عمق الروح أغترف" يقلب الـصفحات، يرسم خطوطا متعرجة، ترنو لسن قلمه وكيف يلتف بالخطوط فيظهر لها وجهها على صفحة بيـضاء، مـن عينيها يطل بريق يتحدى المدى الواصل ما بينه وبينها.

"محمد الفخراني" يجلس في الصف الأخير، يرقب حركة الحضور في المجلس، لم يتكلم، ولـم تـرن نبـرة صوته بالشجن في فضاء القاعة، ظل على صمته، إلا من ابتسامة تطل حياء تقطر بالنقاء، تتذكر كلماته يوم شاركت في حفل تكريمه. يكرم الأديب في جو مشحون بالهزيمة.

صابرة ونشيد الحرمان، أحتمي بالجذور خشية السقوط.

أنفاسها تتسرب من صدرها، يضيق المقعد بها، تتخلى عنه بطريقة لا إرادية إلى مقعد يقابل باب الخروج، فكان بجوارها، صافحته، همس لها:

- حنين، ستطبع روايتك.

- أنا؟!

- نعم صدقيني، ما أسعدني يوم أقبض على روايتك مطبوعة، قرأتها، وقـالوا لـي أنـت ابـن الحكايـة، وجدوني معك في سطورك المكتوبة.

صوته وشوشات مسافرة في أذنها، همس لها:

- هل تتبعيني خارج القاعة؟

نهضت وراءه، لتقف على أول الردهة:

- أستاذ محمد، الصراخ يجتاحني، والبكاء يغرقني.

- اهدئي.

كادت أن تهوي أمامه، ولكنها لاذت بسور الدرج ممسكة بحافته:

- لا تتصور كم أنا متألمة لما يقال، هل يصح أن تكون في وطني وأقول هو مصري لا حق له بيننا، وليعد من حيث أتى.

اقترب منها بخطوات حنونة، يحاول أن ينتشلها من دوامة الألم:

- لأجل هذا يا حنين ستطيع روايتك، لأجل هذا نحن معك، نؤازر خطواتك.

عاد بها لبحر القاعة، استكانت بجواره تسترجع ما قصه عليها، الدهشة تراوغها، تنثر التساؤلات عن رجل بجوارها يلتحف الصمت على تساؤلات تقبع في ذاكرته "لماذا يموت الرجال ويبقى أنصاف الرجال"، وكيف رآني من بين الجموع وكشف عن ألمي الدفين؟!

العيدان تشرئب، تقابل الريح وقد كساها الجفاف، تخرج منها براعم الزهر، يولد الأخضر من اليابس، تتبرعم زهرات تنشد للحياة أغنية الفرح.

(٨٥)

في شارع "جنونيا" داعبت أنفه رائحة الصابون والزيت، يصلي صلاة حسيدية، يحفظ التوراة عــن ظهــر قلب.

أما في "نابلس" القديمة تسكن أنفاس حنين لهيبة المكان، زيت في الصفائح، وزيتون يعصر بــين أضــلاع المكن، قطع الصابون جفت على أرض المعصرة، وقد رصت في بهو معتم تنتظر النور لتستقر على أرفــف منازل لا تعيش دونها.

"نابلس" وسوق البصل، اللحامين، الحدادين، تصل لآخره حارة الياسمين، ثم إلى ساحة الشهداء، "نــابلس" وأسماء لها تولد منها الحكايات.... حكايات لا تموت، تبقى حرة كما فضاء بلادها هناك.

(٨٦)

"سنجر" يحكي عن شوارع وأسماء أزقة، كل منزل له مكان في ذاكرته، رقم ٥ هو معهد تلمودي، تلقى فيه فصلاً دراسياً، في فناءه حمام شعائري، وعقائل يأتين يغمرن أنفسهن في الماء، يبزغن نظيفات متوردات الخدود، وما بين رقم ١١ ورقم ١٣ عاشت "ريتزل" البدينة، هي ذاتها اللعبات يمارسونها من سنين طويلة، وخوفه على شقيقته لأن تنتقل إليها عدوى حنينه إلى الماضي.

رقم ٦ وكر اللصوص، منزل ١٠ اعتاد أن يقيم فيه، رقم ١٢ دكاكين اعتادت العمة أن ترسله إليها لشراء الكيروسين، صباغون، سمكريون يصلحون الأوعية المكسورة، رجال يحملون أجولة على أكتافهم، يبيعون ملابس قديمة.

كل هذه التفاصيل في مدينته "وارسو" هي ذاتها في "سوق فراس" من مدينتها "غزة" وكيف كانت تجذبها أكوام الملابس القديمة، ترفع منها قطعة وتلصقها على جسدها الصغير، تنظر لعين أمها، قد تلمح فيها معنى القبول لشراء ما أحبته.

حقائب معلقة جفت تحت سقف الدكان المقوس، ساعات قديمة لا تدور، ولكنها تحبها، خيول تجر العربات الفقيرة، تقف متعبة تحت قيظ الشمس، خبطات الحدادين، تتراقص مع دقات قلبها، "سوق فراس" لا يعرف عنه "سنجر" ولا تهدأ حركته في ذاكرة حنين، ظل على طزاجته لا يموت أبدا، وظلت لا تبتهج للملابس الجديدة، دوما تأخذها خطاها لقلب البلد القديمة، تبحث عن أشياء كانت تحبها هناك في "سوق فراس".

(٨٧)

"**سنجر**" في رحلة ذكرياته هاله مشهد الدجاج المذبوح الملقى في السلال، يقسم أن يصبح نباتياً!! هل لــه أن يقسم بأن لا تطأ قدماه أرض فلسطين المشبعة بدماء من اغتالتهم المؤامرة؟! وهل شاهد الفلاح وامرأتــه تسرع الخطى خلفه، تحمل من خبز الطابون، يداعب الريح طولها، وقد علقت على بــساعدها ســل صــغير، الأمان يحتضن طفلها في بيتها المعلق على قمة جبلية، وكيف يقطع الطريق عليها عصابات مسلحة، فيضيع البيت، وتدفن ضحكة طفل ينتظر صدر أمه، وكيف بات كل هذا دجاجا مذبوحا ملقى في السلال.

(٨٨)

شارع رقم ١١ في وارسو هل يقابله شارع عمر المختار في "غزة"، وشارع رقم ١٣ يوازيه شارع الوحدة، وينتهي بمستشفى الشفاء، شارع رقم ١٠، شارع جديدة في "يافا" وصبا أمها ربيحة، جديدة مسجد وبحر ومدرسة.

تقف "شوشا" قائلة لحبيبها "لا أحب أن تذهب بعيدا مرة أخرى".

أما حنين فليس لها سوى تلة من رمال ترقب منها قرص الشمس حين تزفها خطوطا قرمزية، تبتهج لهبوطها عوالم بعيدة، تودع فيها عمرا ضائعا، شمس تريد الوعد منها، حين تشرق من جديد أن تتلقفها عين الحنين.

(٨٩)

يكتب "سنجر":

"شوشا تريد السلام، وملايين البشر تريده، ولو خيروا لاختاروا أن يعيشوا حياتهم بقليل أو كثير في قصور أو حجرات قبو، مادام لديهم كسرة خبز أو وسادة يضعون عليها رؤوسهم، أليس هذا حقيقي يا شوشا؟

- أجل حقيقي..".

لماذا كان الحوار ثنائيا، سنجر وشوشا، سنجر وضميره الذي يصرخ في كيانه "السلام، من يريد السلام فينا؟".

كيف لإبن وارسو أن يبتر جذوره ويلتحف فضاء مدينتها؟! يهيم على وجهه في شوارع القدس، يفتش عن منزل رقم ٧..١٠.. ٥ منزل شوشا وأمها باشيل، ينسى كل ماضيه، ويشكل تاريخاً جديداً، يبدأ من نزوح وهجرات، وأسلاك تفرد أشواكها على حدود وطن تحفظ خرائطه، تعرف جبال وأغوار، وانحدار أنهار، وحكايات الجدات.

هل للحوار أن يكون ثلاثياً؟ وتحول نظرة حنين بينهما، تمد يدها للقيمات ترضى بها على أرض وطنها، تلتحف من التراب وسادة، والسماء غطاء يضم أحلامها "السلام.. ومن يرضى بالسلام".

(٩٠)

– أنظر السماء حمراء كالنار تماماً، من ذا الذي يسكن هذه المباني الجميلة.

– الأثرياء.

– يهود أم غير يهود؟

– معظمهم غير يهود.

تهذي حنين من غليانها، تكتب على صفحات بيضاء:

معظمنا غير يهود، ولكنا علقنا على سور الشوك، وجرحت جلودنا، أسلاك حالت ما بيننا وبين الرجوع.

معظمنا غير يهود.. هي ملابس تستر أجسادنا، وصحون إعاشة، وخيام دقت أوتادها تستعجل النوات القادمة لتتصدى لها.

معظمنا غير يهود.. هناك هم جميعهم، اعتلوا الجبال، وفتحوا الأبواب الموصدة، وألقوا بالأقفال دون عناء البحث عن مفاتيح لم تغادر صدور دافئة على الحكايات.. كل ما يفعله "الخريبي" أن يخرج مفتاح بيته من صدره، لونه أسود قاتم، غليظ لا يطاله صدأ، حمله ثقيل.

من رأى منكم مفاتيح ضاعت أبوابها، لا تفتح أبدا؟!

مفاتيح تفتح الذاكرة خوف أن تتوارى خلف حقائق غافية. وهل تموت الحقيقة؟ تهتف من روحها:

– الحقيقة لا تموت حتى وان وريت التراب، تظل ناصعة، من خيوط الشمس جدلت ضفائرها، تصرخ فينا "ابحثوا عني حتى وان كان من اسنان مفتاح قديم فقد فتحته بابه".

صدور العجائز في بلادنا وعلامات السنين وقد علمت على ثنايا جلودهن، أثوابهن لها فتحة تتسع لراحات أيديهن، كلما حضرت الحكايات يدسنها ويخرجن بذات المفتاح.

هو مفتاح وحيد يفتح جميع الأبواب الضائعة.

يعود "سنجر" يعلن عن أمنياته الغافية في سحيق أعماقه "أنه يريد سلاماً" وشوشا أيضا تنشد السلام، يسأل عن مصير اليهود، يستشرف رياح شر آتية. هل تأتي من فتحة ثوب العجوز التي تخبىء مفتاحها في صدرها؟

مفتاحها أسود غليظ.. أبواب بيت "شوشا" لا تقفل أبداً، إذا وجدت السلسة لم تجد الخطاف، وإذا وجدت الخطاف لن تجد السلسة.. هكذا يكون بيت "شوشا".

حنين وبيوت مدنها البعيدة تستنهض من غابوا عنها، ليعودا ويفتحوا أبوابها.. "سمير أبو الفتوح" وكلماته تطن وقع أجراس في ذاكرتها: "عودي إلى شوشا".

(٩١)

والد سنجر يكره الجرائد وكتابها، يقول أنها تدنس الحروف العبرية، والد حنين كانت جريدته تنـــام علـــى وسادة تجاور رأسه، إن ضيع مكانها يقلب الدار باحثا عنها، يسأل كل واحدة من بناته:

– هل رأيت الجريدة؟

– أي جريدة؟

– القدس.

كانت له جريدتين مفضلتين، القدس، والفجر، وكم كان حزيناً يوم أغلقت السلطة العسكرية أبـــواب الفجـــر ومنعت صدورها، يحدث بناته بنبرة حزينة تقطر بالفقد والألم:

– أظنها أيام وتعود مرة أخرى، بالأمس خطف رئيس تحريرها، ولا احد يعرف طريقا له.

ما أن ينهي جملة حتى ينهض، يدور في الدار يبحث عن فقد لا ملامح له.

(٩٢)

الحاخام "رادزمين" قبل أن يسلم روحه تحت سماء بولندا قال:

"السكين لقطع الخبز لا لقطع لحم الإنسان" سفر الجامعة ٩٩. رأيت أيضا تحت الشمس الظلم، حيث كان يجب أن يكون العدل" وصايا وحكايات أين هي تحت شمس فلسطين؟!

يدعو سنجر لهتلر وستالين بأن يمحو الله اسميهما من الأبرياء ويهلكان.. هتلر وموسوليني واتفاق لتدمير بولندا للقضاء على اليهود. وقوف هتلر على أبواب وارسو وخوف سنجر هو ذاته خوف ربيحة حين دخل اليهود غزة، كانت على يقين بأنهم سيدخلون يذبحوا ويقطعوا أوصال، لا تعرف حنين متى استردت أمها أنفاسها، وكم من الوقت مضى لتصلب عودها هي وأبوها، وإرادة أقوى لأن يعيشوا ولو جزء من حياتهم اليومية، وحنين تقرأ وصايا وحكايات:

"اليهود على خلاف غيرهم لم يسفكوا دماً على مدى ألف عام، هم الوحيدون اللذين يلعبوا بالكلمات والأفكار بدلا من السيوف والبنادق، وسوف يسافرون لأرض إسرائيل على جسر من ورق".

وحكايات تعرفها حنين يوم حمل الرجل أمه على كتفه، يعدو بها إلى مدارج الجبال، ودموعها تتساقط على كتفه، كيف يتركها والمذابح لم تتوقف في قرى ومدن الشمال، وبعد سنوات يجلس "الخريبي" ويقسم بأنه هاجر قسرا وأمه على ظهره لم ينزلها على طول الطريق.

وجسر من ورق.. من أجساد عارية تعبر نهر الأردن فراراً من عصابات تسلحت بفحيح المؤامرة، لا تعرف إلا لغة القتل.

وجسر من ورق!!

(٩٣)

"سنجر" أيضاً له ذاكرة يحفر عليها، كل مبنى وكل دكان وكل وجه، وكأنه ينظر بهما مثل نظرة المحكوم عليه بالإعدام وهو إلى طريقه للمشنقة، سفينته متجه إلى "جنوا" وغناء المسافرين حديثي السن يدوي طوال الليالي، الأغاني القديمة المألوفة بالإضافة إلى الأغاني الجديدة التي انبثقت من الحرب مع العرب ما بين ١٩٤٨، ١٩٥١ وبعد ست أيام وصلت إلى "حيفا".

"حيفا" وجه فلسطين البحري، مرج ابن عامر هو الظهير المباشر لمينائها، بكت أمواجها على أجناس ألقيت في مرفئه، ليميتوا وطنا ويحيوا هم على جثته. "حيفا" وخط سكة حديد القنطرة، "غزة"، "اللد"، "حيفا" ومنها إلى "بيروت".

من تلة السمك فيها استخرج الفينيقيون لون الأرجوان القرمزي. مدينة حيفا كانت تتم عليها كل خطط المؤامرة من عصابات صهيونية مدربة "الهاغاناه، والأرغون" وخطة المقص للسيطرة على الحي العربي وتمزيقه.

سنجر يوم نزل ميناء حيفا كان سعيداً مشرقاً، يقرأ لافتات الدكاكين وقد كتبت بالعبرية، هو لا يعلم أن الصهيونية فور استيلائها على المدينة قلبت مساجدها إسطبلات للخيول، ونزعوا شواهد القبور الرخامية ليستخدموها في عمليات البناء، والشوارع التي مضى عبرها احتضنت مئات من جثث الشهداء إشاعة للرعب في نفوس من بقي من العرب في حيفا. مدينة يأتي إليها سنجر دون شوشا، وقد غادرها من أهلها أكثر مكن سبعون ألف عربي.

يكتب سنجر:

"لافتات العبرية تعلو الدكاكين، الشوارع تحمل أسماء الكتاب والحاخامات والقادة، العبرية يسمعها تنطق بطريقة اليهود الشرقيين، تل أبيب بدت المنازل قديمة وحقيرة، الطعام رديئاً، فقد الأبناء في المعارك من أجل القدس".

شوشا تودع الحياة، ورحيل عن وطنها شارع رقم ١٠ وارسو، بولندا، كان يومها الجميع يسرع الخطى، لم تستطع مجاراتهم، تتسرب أنفاسها منها، جلست تستريح، توفيت بعد دقيقة.

يقول سنجر: "لم تكن راغبة في العيش أكثر من ذلك".

تلمع الفكرة في عين حنين، يعتصر قلبها إصرار عظيم، تحدث نفسها:

– شوشا لم تستطع مجاراتهم في طريقهم للمؤامرة، توقف قلبها فجأة، قبل أن تتنفس هواء مدينتها هناك، شوشا لم تطأ بقدميها النحيلتين أرض فلسطين، لم تحتمل ميلاداً آخر غير موطنها شارع رقم ١٠ وارسو.

"سنجر" يكتب شوشا في أكثر من أربعمائة صفحة، بكلام دقيق وفصول متوالية، لم يثقل قلمه إلا في فصل الخاتمة، خاتمة رمادية حزينة، يصب كل آلامه في "دار يوسف" ضاحية على مشارف تل أبيب، وكيف تولد اللعنة من هتلر وتتحول إلى بن جوريون.

دار يوسف في نظره حبال غسيل، وأطفال نصف عراه يلعبون في الوحل، رائحة النفايات، وأحذية مشقوقة في أقدام النساء، ذباب وخنافس وفئران، وأرائك تتحول لأسرة في الليل، وبالرغم من كل هذا يهتف أحد شخوصه "هذه أرضنا، وهذا منزلنا، ولعلنا نحظى بالموت هنا إذا لم نقذف في البحر، ما دمت لا أقتل أحدا أو أؤذيه أستطيع أن أسمي نفسي يهودياً".

يسأل عن السنون وإلى أين يمضي، ذبابة سقطت في نسيج العنكبوت فامتصها جافة.

اسحق سنجر في فصله الأخير يفقد ذاته، يبحث عنها، وقد باتت أشلاء في زمن بعيد، يسأل عن جواب لسؤاله، لا يوجد جواب!!

هل أراد أن يعلن عن ندمه لدخول أرض وصفها ودون أن يدري بالخراب، بدئا من دار يوسف؟ وأن الرب هو الذي يريد أن يستولوا على أرض إسرائيل من الكنعانيين ويشنوا حرباً على الفلسطينيين.

كان يطلب الجحيم لهتلر، والبولنديون يستعجلوا قدومه ليخلصهم من اليهود.

والفلسطيني من ينادي؟! يقبض على رجع الصدى حين يعود خاويا من الجواب.

سنجر ينتظر جواباً.

وحنين تنتظر عودة إلى هناك.. لزهرات اللوز التي تقطر بالشوق إليها، لدار يوسف والطريق إليها، كل النجوم تزفها، وكل الأطياف تحنو عليها، "تل الربيع"، "صفد"، "القدس".

مدن غائبة، لا تتوسد إلا صدر الحنين.

(٩٤)

الفرعون المصري يكتب على مسلته "لقد نسفت عسقلان، واكتسحت جزر ودمرت إسرائيل واقتلعت جذورها فأصبحت فلسطين أرملة لمصر".

الفرعون ومسلة شاهدة عليه، تفك رموزها حنين بحروف عربية، تاريخ بعيد بعمر الحضارات كلها، واليوم تقرأ وبحروف عربية "تل أبيب تتهم أسماكاً مصرية متسللة بقتل صيادين إسرائيليين والتسبب في خسائر فادحة، أسماك تبحر في رحلتها الطويلة من المياه المصرية على سواحل البحر الأحمر، تلتهم كل ما تجده من طعم يلقيه الإسرائيليون لجذب السمك لشباكهم، أسماك مصرية سامة تستوطن في المياه الإسرائيلية وتصل أفواه الإسرائيليين، يستشري سمها في أجسادهم، يصل حد الموت. وسمكة صغيرة تحير خبرائهم، تطعن من يحاول إخراجها من الشباك، طعنات تصل خطورتها لفقد الحياة.

أنواع سامة تسللت إليهم خلال المائة عام الأخيرة، هي من عمر المؤامرة، ألف وثمانمائة إلا ثلاث كما قال الفخراني.

السمكة الواحدة تضع مائة ألف بيضة في البحر الأحمر، وحين تصل المتوسط يتاح لأعداد كبيرة منها البقاء والنمو.

يقول التقرير الإسرائيلي "الأسماك المهاجرة تؤثر على الأسماك الأصلية في المتوسط بشكل لا يمكن فهم وإدراك أبعاده حالياً".

وهل يعيد التقرير ذاته ويكتب عن هجرات صهيونية لأرض فلسطين لا يمكن فهم وإدراك أبعادها.

(٩٥)

تصحو حنين على أوجاع الرأس، تسند رأسها لوسادتها وقد قبضت على فنجان قهوتها، تسال نفسها:

– هل سيزيد الفنجان من أوجاعي؟ ولكني لا أستطيع الكف عن احتساء قهوتي، نومي في ليلة الأمس كان متعبا، أتقلب في فراشي وأقاوم بعناد، طوال ليلي وأنا أتنفس وطنا من الموسوعة الفلسطينية، عثرت على حرف "الخاء" فكانت الخليل وآثار الإنسان فيها من العصور الحجرية القديمة، نزل إليها الكنعانيون من فجر العصور التاريخية، واتخذ إبراهيم منها منزلا ومدفنا له ولإسحق ويعقوب ويوسف.

سكنها العرب " العناقيون" الأقوياء الطوال.

تنهدت من بين الضلوع أنفاسا حارة تلهب جسدا طريح الفراش، ليس فيه إلا أنامل تقبض على فنجان قهوة.

في عشية عيد الفصح توجه إليها ثلاثون عائلة صهيونية، واتخذوا من فندق النهر الخالد مكانا لإقامتهم، وبات المسجد مأرباً لهم، هل يتصور أول دخولهم إليه كان استئذاناً، صلوا واقفين، لم يشدوا أي مقعد للجلوس، ومن رآهم اليوم كيف استولوا على اليعقوبية والممر ما بين قبر سيدنا إبراهيم وزوجته سارة، وكيف يضربون المصليين، ويحرمونهم من الصلاة على موتاهم فيه.

ضياع تلو ضياع.

وليلة كانت بنفس المقاومة، ولم يتبق إلا آثار لفنجان قهوة في يد تقبض على دفء لم يغادره.

(٩٦)

عادت صبيتها من "كندا" تفتح حقائب تعج بالهدايا، انتشلت بلوزتها من قاع الحقيبة، تريها لأمها:

- أنظري يا أمي، وجدتها هناك، أحببت هذه العروس المرسومة عليها، انتظري قليلا.

غابت وبعد لحظات ظهرت بها وقد لبستها، تدور أما أمها، عروس من دم ولحم، وقفت تسألها على ابتسامة لم تفارق محياها:

- أمي، هل تذكري هذه العروس، لقد أكان أول ظهورها على أيامكم، بحثت عنها على جهاز الانترنت، وعرفت حكايتها.

تحدثها والدهشة تقضم من حروف الكلام:

- وهل لهذه العروس حكاية أيضا؟!

- نعم لقد ظهرت في الخمسينات واسمها "بيتي تب" من أب يهودي، ظهرت بفستانها الأحمر القصير، وحذاءها ذو الكعب العالي، شعرها الأسود القصير، خطوتها الرشيقة، عصا تلقي عليها بدلالها وغنجها، إنها جميلة يا أمي، لها قصة مع والدها، يوم عرف أنها تحب ذلك الشاب، نهرها، فخرجت تجلس على عتبة الدار تبكي قسوته عليها.

همست لنفسها:

- أب يهودي! وعروسة تحبها ابنتي لا تكبر أبدا، نصف قرن مضت ولا زالوا يطبعونها على بلوزات الصبايا، بذات هيئتها، لون فستانها، شعرها ودلالها، وقلب صغير مرسوم على جوربها، وكلمات مطبوعة: "أحب الأرض"، وعلى جيب بنطالها الجينز تلتصق نجمة داود بخطوط سوداء!!

(٩٧)

في تلك الليلة الباردة تفتح شاشة الحاسوب، تقتفي أثر وردة بين أسماء كثيرة، هل يضئ اسمها هذه الليلة بالأخضر؟

لمع نور على غفلة، واسم آخر، على صورة امرأة أخذت شهرة عريضة في عـالم الغنـاء، صـورة تفـح بالدلال على مفاتن جسد سجين برواز صورتها، تخمن وتسأل: "هل من المعقول أن تكون تلك المـرأة تريـد محاورتها، تكتب وتسألها عن هويتها، يكشف عن نفسه بأنه مصري الهوية وكنيته الأسيوطي، كتبت له:

- لماذا تتخفى وراء تلك المغنية. كن دوماً أنت حتى وإن كان على شاشة الحاسوب.

حروفه إنجليزية، على معان عربية، تسلل إليها شعور الارتياب، اعتذرت له وطلبت الانسحاب، كتـب لهـا آخر الصفحة بحروف عربية حين تنطقها، تتحول لعبرية "ليلى توف". الدهشة أوقعتها فـي لجـة الحيـرة، كتبت له:

- أنت يهودي؟

- لا.

انطفأ نور الصورة، وأناملها على مكابس الحاسوب، سكنت على سهوم، مرت لحظات وعـاد النـور مـرة أخرى، أعادت السؤال:

- يهودي أنت؟

ظل على نكرانه، وهي تمسكت بأن ظنها لن يخطئ أبداً، كتب لها:

- لقد كتبت بالعبرية لظني أنك من عرب الثماني والأربعين.

إجابته أكدت لها ظنونها، كتبت له:

- "ليلى توف" تقولونها لشعبي هناك، ولم تكن لهم أي من "الليالي الجميلة".

أغلقت شاشة الحاسوب، وقد غمرها شعور بالضيق ممزوج بالريبة، تقول: "كنت أفـتش عنـك يـا وردة، وجاء من يقطع الطريق بيني وبينك".

(٩٨)

في السنة الماضية لمؤتمر أدباء أقاليم مصر، أخذت قطار الجنوب لتصل إليهم، وفي هذا العام كان اسمها، وكان صوت آخر يقول: "بأن لا حق لها" وأن لها فرصة المشاركة في هذا المؤتمر كل عـــامين، وصـــوتها هي يقول:

– نعم، أحب أن أعطي فرصة لسواي، لا أن أزاحم غيري في حق له.

قفل الخط، وجلست وحيدة، بكت، ترفع كفها تمسح دمعات ساخنة، تتلقفها جدران الوحدة، تـــسمع همـــسها الباكي "ليتهم يأخذوني معهم كل عام، كيف لي أن أصبر عن وجوه أحبها، بهم أجد ســـلوتي وعزائـــي فـــي فقدي العظيم، من نور عيونهم قد تصحو مدني الغافية.

من عيونهم قد أعود إلى هناك.

من عيونهم تحضر كل الأوطان البعيدة.

ما بك يا قلب تبكي الفراق؟! وأنت من اعتاد هجر الأوطان.

(٩٩)

لم يخطر ببال حنين أن ترافق صاحبتها عبر شوارع السوق القديم في محطة الرمل بالإسكندرية بعد عودتهما من حفل الخطوبة، شوارع مزدحمة بالسيارات والمارة ، نهر لا يتوقف عبر الأرصفة وأمام واجهات المحلات، لا تلتقط عينها أي مشاهد، كيف وهي المسكونة بهناك، كل ما حولها مرايا تعكس صور وطنها البعيد، كانت تظن أنها ستمضي عنها حال نولهما آخر درجة من بهو المسرح ، ولكن صاحبتها بقلب يجتاحه الفرح أشارت إليها لدكان الحلواني قبل أن تستأذن وتصافحها:

- لتأتي معي.

تسمرت في مكانها، لا تعرف بماذا تجيبها، عاجلتها قائلة:

- انه قريب على بعد خطوتين هيا.

مضت معها، وقفتا على عتبة الدكان، طلبت منه أن يقطع لها من الصينية المستديرة، التفتت لحنين قائلة:

- سأدعوك لكنافة الحلبي.

تمنعت على حياء، وأمام إصرارها وافقتها، مضت لحظات من الصمت، ثم عاودت الحديث مع الصانع وهو منهمك في تقطيع الحلوى:

- كنت آتي إلى هنا وأنا طفلة.

وأشارت إلى زاوية بعيدة في الدكان.

- وكنت أجلس على ذات المقعد الصغير هناك.

نظرت حنين إلى الركن البعيد، وتخيلت صاحبتها طفلة تربط جدائلها بشبرات بيضاء، وتشبك أصابع راحتيها تستعجل الوقت لتمضي بعلبة الحلوى، صاحبتها تعرف أماكنها، منقوشة في ذاكرتها، وطريق الذهاب إليها، وقفت تسند طولها على آخر الجدار، تنهش قلبها الحسرة على زمان كان لها، فأين منها دكان الحلواني هناك؟!

وهل أزيحت عناوين اللافتات لمحل الحلواني، وحلت مكانها حروف العبرية كما كتب "سنجر".

في قلبها، تحفظ أسماء، تكتبها "الكنافة النابلسية، حمراء وشقراء، الكنافة العربية وسر الخلطة فيها، ساق الله، الغزالي، دكاكين حول القدس وأيدي صناع لم تمت هناك، ينادي الحلواني "نابلسية، مقدسية".

(١٠٠)

من سنوات بعيدة اختارت خزينة بنكية من قلب المدينة القديمة، أشياؤها تناديها، غفلت عنها زمناً طويلاً.
وقفت على عتبة البنك، تتأرجح الذاكرة دون تفاصيل تحبها، وصلت مقر الخزانة، قابلتها الموظفة بابتسامة عريضة وكأنها تعرفها منذ أمد بعيد، رافقتها حيث الخزانة. بابها يفتح بمفتاحين، تدور به وتدور به يد السيدة معها، ينفتح الباب، تمضي عنها، تقف وحيدة أمام حاجياتها، ترددت للحظات، مدت يدها على حذر، لا تذكر من أشيائها سوى الخاتم الماسي، قبضت على العلبة، فتحت الغطاء، التقطته، تدسه في إصبعها، يتوقف ولا يطاوعها. المسافات ضاقت، تأملته على نظرة مودعة، ثم سحبته من إصبعها، أعادته وأغلقت عليه، أطلقته حبيس الصمت في خزانة حديدية مظلمة الجوانب، سحبت العلبة المجاورة، فتحتها، فظهرت لها رقائق الذهب، سوار له وهج الشمس، رفعته إليها وقد تدلى منه أباريق صغيرة، راح من ذاكرتها السوار، إنه لأمها، ويوم أهدته لصبيتها الصغيرة، قبضت على قلادة، كف منقوشة بالماس، تقبض على طوق نجاة، صوت أمها ساكن في قلبها، قالت لها:
- علقيه في صدرك طوق نجاة.
كل ما في العلبة يذكرها بأمها ربيحة، حجر العناب المحاط بمنقوش الذهب بوردات أربع، وسؤال أمها:
- لماذا لا تتحلين به؟ أحب أن أراه على صدرك.
حضرت كل أيائها إلا أمها الراحلة في عالم بعيد خفي لا يدركه إنسان، سوار، قلائد، خاتم ماسي، هل تتركها وتمضي أم تحملها معها، تعلقت عينها على كف بطوق نجاة، مدت يدها إليه، ضمت أناملها عليه، وأعادت كل شيء لمكانه وأوصدت باب الخزانة، وفي ذاكرتها يلمع السوار بوهج الشمس وصاحبته أذابت عظامها رمال البرية، همست: "سأعطيه لابنتي، كف بطوق نجاة على صدرها، قد يكون تعويذتها في رحيلي".

(١٠١)

وردة تطل عليها من شاشة الحاسوب:

– عمتي لقد نسيت وردة، زمن طويل لم تصلني رسالة منك، أين أنت؟! حتى يوم ميلادي جاء دون أي كلمة!!

ساد سكون اللحظة، تمنت لو تخبرها بشوشا التي أخذتها وألقتها بعيدا، تداركت لحظات الصمت وكتبت:

– ميلادك هو ميلاد جديد للحياة يا وردة.

– وأنت يا عمتي كلما ذهبت تغيب الشمس عن هنا.

– رأيتك طفلة في المهد، تبكي، وتحملك أمك والحيرة تأكلها، تسأل جدتك عن حالك ومن أين يأتيك البكاء، رأيت وجهك بقسمات صغيرة، وراحة يدك وهي تقبض على شال أمك، تضمك إليها، تهدهد دمعاتك فتسكنين لصدرها، وتغطين في نوم عميق، ترخي أناملك وتفردين ساعديك في فضاء آمن يطل من سماء مدينتنا غزة، نسيت أن أسألك عن أخبار أبوك، وكيف يصارع الحياة فيها؟

– أبي يحفر بئرا خلف الدار، طوال اليوم نسمع دق وحفر لأعماق الأعماق، من شباك حجرتي يصلني كل شيء.

– عن ماذا يبحث؟!

– ننشد الماء يا عمتي، الماء ظهر لنا على عمق خمسون مترا، تفجر الينبوع وبات لدينا بئر من مياه حلوة.

– هذا عمل شاق جداً.

– لا سبيل ولا خيار إلا هذا، اليهود يفتحوا علينا مياه مالحة، تندفع من صنابير المياه، نشرب الملح لأجل الحياة.. داليات العنب، أشجار البرتقال والليمون.. كل هذا يموت، الأرض تعبت من شرب الملح، من الغد سنشربها حلوة، وأغسل ضفائري بماء الينبوع المتفجر من أرضنا.